ابن سعيد المغربي

نصر

المؤرخ - الرحالة - الأديب

محمد عبد الغني حسن



ابن سعيد المغربي

المؤرخ - الرحّالة - الأديب

تأليف

محمّد عبد الغني حسن

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مقدمة

من عجائب المفارقات أن المؤرخ الرحالة الأديب « ابن سعيد المغربى » الذى صان لنا تراجم أندلسية ومغربية ومصرية من الضياع ، لم يظهر عنه فى المكتبة العربية كتاب واحد يترجم له ، ويعرف به ، ويجلو حياته الحافلة بالنشاط الذهنى والبدنى ، فقد كان الرجل لا يمل التنقل فى الأرض العربية الإسلامية يستطلع أخبارها ، ويصف آثارها ، ويخالط رجال الأدب والعلم والشعر فيها ، فيترجم لهم تراجم وجيزة دقيقة ، ويسجل لهم ما أنشدوه — أو استنشدهم — من أشعارهم . ولا تفوت عينه الفاحصة الكاشفة أن تدون فى ذكاء وأمانة ما وقعت عليه من ملامح المجتمع العربى فى عصره . ولا تزال صوره اللماحة الطريفة لمجتمع القاهرة والفسطاط فى القرن السابع الهجرى تفيض بالحيوية والحركة ، وتزدحم بالمشاهد المتنوعة التى كان الرجل لا يمل من إطالة النظر إليها ، وكثرة التدقيق فيها . مع تفتح العين على الغرائب والمتناقضات ، كالذى لاحظه ابن سعيد من أن القرافة بمصر يسكنها الناس ، وخاصة الأعيان ، يجتمعون فيها ويسمرون

ويتنزهون . ولا يتحرجون من الحياة بجانب قبور الموتى وبين ما أكل الثرى من أجسادهم البالية ..

وعجيب جدا أن الرجل، الذى حفظ لنا كثيرا من التراجم التى لولاه لعفى البلى عليها ، يبخل عليه الدارسون بكتاب واحد ، مع كثرة ما ألف من الكتب عن غيره ، ممن لم يبلغوا مبلغه فى حفظ التراث العربى وخاصة فى الأندلس والمغرب . . ولم نجد دراسة واحدة تهتم بالرجل ، إلا ما كان من الدراستين اللتين كتبهما الدكتور زكى محمد حسن ، والدكتور شوقى ضيف فى مقدمة كتاب « المغرب » الذى ألفه ابن سعيد المغربى بالمشاركة .

لذلك رأينا — إنصافا للرجل — أن نقوم بعبء الترجمة له فى كتاب قائم بذاته ، يتسع لنا فيه القول لما لم تستطع الدراسة الموجزة أن تنهض به ، لعل مثل هذا الكتاب فى سيرة رجل من أعلام الفكر العربى يكون لونا من الوفاء لقوم لم تكن الحياة سخية عليهم بالكتابة عنهم ، والإفاضة فى سيرتهم .

ولم أشأ أن أعزل ابن سعيد المغربى عن عصره الذى تأثر به وأثر فيه ، فوسَّعت الحديث عن القرن السابع الهجرى الذى

عاش الرجل فيه ، وحاولت أن أدنى أطراف الصورة ما بين الأندلس ومصر ، وما بين المغرب والمشرق فى ذلك العصر ، حتى يكون القارىء الكريم على تمثل صحيح لها ، وإحاطة تامة بها .

والله المسئول أن يجعل هذا العمل وما بذلت فيه من جهد خالصاً لوجهه الكريم .

محمد عبد الغنى حسن

الفصل الأول

عصر ابن سعيد المغربي

١ - الحياة السياسية

ولد علي بن سعيد المغربي في سنة ٦١٠ هـ بأرض الأندلس ، على قول واحد لا خلاف فيه ، وتوفي — على أرجح قولين — سنة ٦٨٥هـ ، فهو إذن قد عاش بضعة عقود من السنين منذ العقد الثاني من القرن السابع الهجري .

ولو أن ابن سعيد كان قد استقر بوطنه الأندلس طول حياته ما تجاوزنا بالوصف التاريخي والسياسي هذا الإقليم العربي الذي فتحه العرب في الجنوب الغربي من أوربا وأقاموا فيه ملكا عربيا إسلاميا ظل هناك ثمانية قرون ، إلى أن كتب الله أن يضيع على يد فرديناند وأيزابلا سنة ٨٩٧هـ . ولكن ابن سعيد لم يرض بالمقام في وطن أخذت تندك قواعده بلدا إثر بلد .. فرحل إلى المغرب وتونس ومصر والشام والعراق والحجاز . وظل حياته أخا سفر في أقاليم المشرق إلى أن قضى الله أن يلاقي منيته في

تونس .. ومن هنا كان حتماً علينا أن يتسع إطار الصور السياسية فى القرن السابع الهجرى ، ليشمل أرض الأندلس والمغرب والشرق العربى ، وهى تلك الأقاليم التى وطئتها قدم هذا الأديب الرحالة المؤرخ الكبير .

ويتميز القرن السابع — الذى عاش ابن سعيد المغربى فى معظمه — بأحداث جسام هزت العالم العربى الإسلامى هزاً عنيفاً . فقد سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية فى هذا القرن سنة ٦٥٦ هـ على يد التتار بقيادة زعيمهم هولاكو ؛ وكان ذلك على أرض الشرق . وكأن النكبة لم تكتف بما نالته من الطرف الشرقى لدول العرب والإسلام ، فامتدت إلى الطرف الغربى ، وأخذت عواصم الأندلس تسقط واحدة إثر واحدة . فما كاد العرب فى الأندلس يفرغون من الشجون التى أثارها سقوط طليطلة فى القرن الخامس حتى رأينا القرن السابع يزدحم بحوادث سقوط الحواضر الأندلسية الكبرى فى يد نصارى الأسبان . ففى سنة ٦٣٦ هـ تسقط بلنسية ، وفى سنة ٦٣٣ هـ تسقط قرطبة ، وفى سنة ٦٤١ هـ تسقط مُرسية ، ، وفى سنة ٦٤٣ هـ تسقط قلعة جيان الحصينة ، وفى سنة ٦٤٦ هـ تسقط أشبيلية .. وهكذا أخذت تسقط بلاد الأندلس بلداً إثر بلد فى خلال ذلك القرن المنكود. ولم يبق للعرب فى أسبانيا إلا مملكة غرناطة التى ظلت تقاوم فى

عهد ملوكها بنى الأحمر إلى أن لقيت مصيرها المحتوم سنة ٨٩٧ هـ .

ولا تسل عما كان يثيره سقوط هذه الدول العربية من مرارة وحزن عميق فى نفوس العرب ، وما كان يثيره من فرح فى نفوس أعدائهم . ولقد أحسَّ المفكرون من أهل الأندلس — منذ اللحظة التى حقق فيها الأسبان أول انتصار لهم باسترجاع طليطلة — أن مجاورة عدوهم الماكر أصبحت شيئا لا يحتمل ، وخطراً لا يطاق .. وبأن ملك الأندلس العربية أخذ ينثر من وسطه لا من أطرافه .. فقال شاعرهم « ابن العسَّال » وأحسن :

يا أهل أندلسٍ حُثُّوا مطيَّكُمُ
فما المقامُ بها إلا من الغلَط

الثوب ينسلُ من أطرافه، وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات فى سفط ؟

ويتوجه عرب الأندلس إلى أخوانهم العرب فى الشمال

الأفريقى يستنجدون بهم على عدوهم ، فنرى الأمير « زيان» أمير بلنسية يبعث سفيره الكاتب الشاعر « ابن الأبار القضاعى» إلى الأمير أبى زكريا أبى حفص ملك تونس يستمد منه العون ويستصرخ الشاعر السفيرأمير تونس بقوله :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
أن السبيل إلى منجاتها درسا
وَهَبْ لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر ملتمسا . .

وفى سقوط قرطبة سنة ٦٣٣ ه ومرسية سنة ٦٤١ ه ، وأشبيلية سنة ٦٤٦ ه يصور لنا المؤرخون الأوربيون مظاهر الاحتفال التى صاحبت دخول المنتصرين ، وينقل لنا المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ كثيرا من أوصاف هذه المظاهر . وهى — على الرغم مما يلونها من عنصر المبالغة — تصور لنا أفراح الغالبين ، وأحزان المغلوبين فى ذلك الزمان .

ولا شك أن العرب فى الأندلس كانوا مسئولين عن ذلك المصير المؤلم الذى لقيهم هناك . فقد كان بهم غفلة عن عدو مجاور لهم ، متاخم لحدودهم ، موتور منهم ، وهو لا تغمض له عين . .

فقد كان الأسبان يتربصون بالعرب الدوائر ، ويعملون على استرجاع البلاد من أيديهم . ولا يسكتون عن أية فرصة تلوح لهم للغارة عليهم وطردهم من بلادهم . وقد شهد بهذا شاهد من الأوربيين أنفسهم ؛ فالمؤرخ الأنجليزى لينبول يقول فى هذا الصدد : (إن من شر ما ارتكبه العرب من خطأ ، إهمال أمر نصارى الأسبان من أول الأمر) .

وهذا التقدم النصرانى الذى شهدته الأندلس فى القرن السابع بصورة واضحة ،يقابله تقدم مغولى ، أو زحف جارف ، من الشرق نحو الدولة العباسية بل نحو الأمبراطورية الإسلامية كلها فى القرن نفسه . فقد بدأت موجة التتار بقيادة جنكيز خان أولا ، وانتهت على يد حفيده هولاكو الذى سقطت على يديه بغداد سنة ٦٥٦ ﻫ

وكما تقاعس العرب فى الأندلس عن الجد والتصميم ولمّ الجهود فى مقاتلة الأسبان فأنهم تقاعسوا فى المشرق عن ملاقاة الزحف المغولى فى أول أمره . وقد تنبه المؤرخ ابن الأثير إلى هذه الظاهرة معلقا عليها فى تاريخه الكبير : (فما نرى من ملوك الأسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين ، بل كل منهم

مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته . . . وهذا أخوف عندى من العدو . . .)

ولقد عاصر ابن سعيد المغربى بداية سقوط المدن الأندلسية وأسهم فى بعض أحداثها قبل أن يغادر الأندلس سنة ٦٣٩ هـ راحلا إلى المغرب فتونس فمصر . كما عاصر حوادث سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ على يد التتار ، وسمع كثيرا من أهوال هذا الحادث العظيم وهو مقيم بتونس .

ولاشك أن هذه الأحداث قد أثرت فى نفسه وحزنت قلبه . . . لولا ماتخلل هذين الطرفين من وقائع أعادت إلى نفسه المكلومة الثقة بقدرة العرب والمسلمين على الوقوف فى مواقف النصر المؤزر ، فأن بيت المقدس أعيدت للمسلمين نهائيا سنة ٦٤٢هـ على يد الملك الصالح أيوب ، وفى عهد ابنه الملك المعظم توران شاه نزلت الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى دمياط ومنها إلى المنصورة حيث لقى الصليبيون جزاءهم سنة ٦٤٨ هـ فأخذتهم سيوف المصريين من كل جانب ، وقتل منهم نحو ثلاثين ألفا وغرق كثير منهم فى النيل وأخذ ملكهم لويس التاسع أسيرا فى دار ابن لقمان حيث افتدى بمبلغ كبير . . .

ولا شك أن ابن سعيد المغربى الشاعر قد طرب للقصيدة التى نظمها صديقه الشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح مخاطبا ملك فرنسا المأسور المهزوم ومسجلا حادث هزيمة الصليبيين : —

قل لفرنسيس إذا جئته ... مقال حق عن قؤول نصيح

آجرك الله على ماجرى ... من قتل عُبَّاد يسوع المسيح

دار ابن لقمانَ على حالها

والقيد باقٍ، والطواشى « صبيح »

وبين هذين الطرفين فى المشرق والأندلس — وهما طرفان بعيدا الجناح — قامت فى الشمال الأفريقى بالقرن السابع الهجرى دولة من دول الموحدين اسمها الدولة الحفصية — نسبة إلى أبى حفص الهنتانى أحد القائمين بدعوة عبد المؤمن بن على والمشيدين لدولته. وقد قامت هذه الدولة بتونس سنة ٦٠٣ ﻫ ، واستطاعت أن تؤمن كيانها وتتمتع باستقلال وسيادة وسلطان ونفوذ لم يتح لدول الشرق والأندلس . وقد وفد ابن سعيد المغربى على هذه الدولة فى عهد أميرها أبى زكريا يحي الحفصى وولده أبى

عبد الله الملقب بالمستنصر. ومدح المترجم له الوالد والولد شعراء، ونال صلاتهما وحظى بالتقرب منهما... والحق أن بلاط المستنصر هذا كان مهوى الأدباء والشعراء والعلماء. وكانت صلة ابن سعيد بهذا البلاط مما يستحق أن نتحدث عنه فى فصل خاص.

ب ـ الحياة الإجتماعية

غادر ابن سعيد المغربى وطنه الأندلس وهو فى سن التاسعة والعشرين ، وظل مابقى من حياته موزعا بين المغرب وتونس ومصر والشام والحجاز والعراق . بل يقال أنه أوغل فى بعض بلاد المشرق كأيران .

ويذهب بعض المؤرخين المعاصرين إلى أنه وصل إلى غرب أفريقية ومصب نهر السنغال ، وأن كان الدليل على ذلك ليس قاطعا . ولاشك أن ابن سعيد المغربى رأى فى خلال تجواله فى تلك الأقاليم الإسلامية الواسعة كثيراً من العادات التى لم يألفها فى الأندلس ، والتى كانت جديدة عليه . ولم يقف صاحبنا أمام عادات المجتمع العربى الأسلامى فى القرن السابع معصوب العين أو ساكت اللسان . . فقد كان يسجل مايراه من المشاهدات ويعلق عليها ، ويوازن بينها وبين الأحوال السائدة فى مجتمعه الأندلسى . ومن هنا استطاع أن يصور لنا صورة طريفة من حياة المجتمع العربى فى المغرب والمشرق على السواء .

وإذا كانت مواقع لحظ ابن سعيد المغربى قد سجلت لنا

بعض نواحى المجتمع العربى فى عصره فإننا لانستطيع أن نقول إن صورة ذلك المجتمع قد وصلت إلينا كاملة من خلال رحلاته . . ولكنها مواقع لحظٍ عند رجل ذكى متفطن ، تقرب لنا كثيراً من صور الحياة الاجتماعية فى ذلك القرن الذى شهد أعظم حادثين مُنِى بهما الإسلام والعروبة ، وهما موجة التتار وسقوط بغداد على أيديهم من ناحية ، وهجمات الأسبان العنيفة المنظمة على دول الإسلام وعواصمه فى الأندلس من ناحية أخرى .

وليس عجيبا تباين العادات والمواضعات فى مجتمع عربى إسلامى ممتد الأطراف ، فإن لكل بيئة أقليمية أو محلية طابعها الخاص الذى يحدده العرف والعادات والموروثات والإمكانيات المادية لكل أقليم ونظمه وطرائق حكمه ، وظروف مناخه ، وهندسة بنائه . فمدينة الفسطاط مثلا كانت على عهد ابن سعيد المغربى غير ما كانت عليه أشبيلية فى الأندلس ، ومراكش فى المغرب . . .

فالفسطاط فى ذلك القرن كانت مثلمة الأسوار ، مغبرة الآفاق ، غير مستقيمة الشوارع ، بنيت بيوتها من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال مايقبض نفس النظيف .. وأسواق

الفسطاط كانت ضيقة ممعنة فى الضيق كثيرة الزحام ، تكاد تسدها الروايا[1] المحمولة على ظهور الجمال ، وجامع الفسطاط نفسه تطوى فيه الحصر وتبسط على غير نظام ، والناس يجعلونه معبرا يختصرون به الطريق إلى أغراضهم ويطأونه بأقدامهم ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما إليها .

والناس يلتهمون الأكل فى داخل الجامع وفى عدة أمكنة منه غير محتشمين ، ولامراعين حرمة . . وابن سعيد يلتمس للناس العذر فى ذلك بَجْرى العادة عندهم بذلك . .

ولم يكتف الناس بذلك ، بل طرحوا فضلات مآكلهم فى أرض الجامع العتيق ، وأخذ الصبيان يلعبون فى صحنه . . ولطخت الأيدى حيطانه بكتابات سخيفة مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة . . .

ولم تكن القاهرة فى القرن السابع بأسعد حظا من الفسطاط . فعلى الرغم من القصور العظيمة المطلة على شاطىء الخليج كانت الأسواق ضيقة ، والممرات كدرة مزدحمة ، والشوارع

---

(١) الروايا هى قرب الماء تحمل على ظهور الأبل

مملوءة بالتراب والفضلات ، وأكثر الدور مبنى من القصب والنخيل والطين . على عكس ما كانت عليه الحال فى الأندلس والمغرب . . وكثيرا ماكانت تثير المفارقات بين المغرب ومصر ألوانا من الحنين والأسى عند ابن سعيد . وقد ترك لنا فى بعض مصنفاته صورا من القاهرة وزحامها وضيق أسواقها وطرقاتها تثير الضحك ، كوصفه لموكب وزير الدولة الأيوبى فى أحد الطرق وقد اعترضته عجلة بقر تحمل حجارة . . . وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان فى موضع طباخين ، والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكاد الوزير يهلك فى جملتهم . . !!

ولفتت وسائل الانتقال الداخلية بمصر نظر ابن سعيد . فقد لاحظ كثرة استعمال الحمير فيها كثرة لم يشهد مثلها ولا قريبا منها فى أى قطر عربى آخر . . . ولقد كانت مسيرته من باب زويلة إلى الفسطاط مثيرة ومضحكة ... فلقد شاهد عددا هائلا من الحمير معدا للركوب لاعهد له بمثله فى بلد آخر ... ولما أشار إليه المكارى أن يركب حمارا معه ليذهبا الى الفسطاط أنف صاحبنا من ذلك جريا على عادة ماخلفه فى المغرب ! ولم يطمئن إلا حين أخبره المكارى أن ركوب الحمير غير معيب على أعيان مصر ! ولم يرض ابن سعيد بركوب الحمار إلا بعد أن عاين

بنفسه الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها . . . ولم يسلم صاحبنا بعد ذلك من الغبار الأسود الذى أثاره الحمار فوقع فى ظلمة مثارة من العَجَاج .. !!

ورأى ابن سعيد من عجائب القاهرة ومفارقاتها أن المرء يموت فيها عطشا مع أنها فى أرض النيل الأعظم ! وذلك لبعدها عن مجرى النهر لئلا يصادرها ويأكل ديارها . وكان من نتيجة ذلك ظهور طائفة السقائين والحمالين للماء فى القرب المتخذة من جلود الأغنام وغيرها . وهى ظاهرة ظلت تسود القاهرة إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى حيث سجلها المستشرق أدوارد وليام لين فى كتابه : (المصريون المحدثون) .

وتدلنا ملاحظات ابن سعيد المغربى على أن مصر فى القرن السابع كانت مهوى أفئدة الوافدين إليها من الأقطار العربية الأخرى ، وخاصة المغاربة ، الذين كانوا بين حالين : فإن كانوا أغنياء طولبوا بالزكاة والضرائب والترسيمات (أو الرسوم الحكومية) وضُيِّق عليهم فى طلبها إلى حد المضايقة والمصادرة ، وإن كانوا فقراء حملوا إلى السجون حتى يحين موعد تجنيدهم فى الأسطول المصرى بما لهم من خبرة ومعرفة بمعاناة الحرب فى البحار . . . على أن الغنى من أفراد الشعب المصرى لم يسلم

كذلك من طلب الأموال والضرائب والرسوم ... وقد يموت له صاحب أو قريب ، فيقال له إن الميت ترك عندك مالاً ، فلا بد من تقديمه للحكومة ، وإلا عذب وضرب وعصر حتى يقر !! والفقير مستريح من ذلك كله ، فهو راض بالكفاف ، وبرخص الخبز وكثرته . وهى ظاهرة لفتت نظر صاحبنا المترجم له . . .

ومن المفارقات بين المجتمع الأندلسى المغربى والمجتمع القاهرى كثرة وجود السماع والفرج والملاهى فى داخل القاهرة وخارجها ، فهى مدينة الطرب واللهو والرقص . بل بلغ الأمر بها أن أوانى الخمور (١) ودنانها كانت تعرض فيها علانية بدون إنكار ولا استنكار . . . كما فشا تعاطى الحشيش ، ومصاحبة المردان . . . أما النساء العواهر فكن يتبرجن ويتعرضن للرجال فى صورة منافية للحياء . مع أن ذلك كله كان فى الأندلس والمغرب وتونس ينكر أشد الإنكار . . .

---

(١) لم تقل حلب فى هذه الناحية عن مصر . . فقد روى ابن العماد المؤرخ أن الناس كانوا فى عهد الملك الناصر يوسف الأيوبى ملك حلب (فى بلهنية من العيش لكن مع إدارة الخمر والفواحش) • انظر الشذرات ج ٥ ص ٣٠٠ . ويظهر أن الأندلس والمغرب كانا على خلاف ذلك ، مما كان موضع إنكار واستغراب عند ابن سعيد المغربى .

ولفت نظر ابن سعيد المغربى فى المجتمع القاهرى اشتغال النصارى واليهود فى مصر بكتابة الطلب والخراج والحساب ، وهى شهرة بقيت لإخواننا الأقباط إلى اليوم . وكانت أنواع الملابس تميز بين المسلمين وغيرهم ، فالأقباط والنصارى عامة يمتازون بالزنانير فى أوساطهم ، واليهود يتميزون بعمائم صفر ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة . .

وكان لـكل قطر عربى طبقه الخاص من الطعام ، ولونه المختص به من المأكل والمشرب . فأهل القاهرة يأكلون « البطارخ » بكثرة ظاهرة ، كما يأكلون « حلاوة القمح » التى انفردت بها القاهرة وأخواتها من المدن المصرية .

وعلى ذكر الأطبخة والمأكولات فإن الذى كان يقوم بهذه العملية فى بيوت الأمراء والأثرياء والقادرين جماعة من الجوارى الطباخات المنحدرات من أصول نشأت فى قصور الخلفاء الفاطميين قبل العصر الأيوبى الذى زار مصر فيه صاحبنا ابن سعيد . وكان يقوم بالخدمة فى البيوت جماعة من الخدم تغلب عليهم الأمانة فى الخدمة والوفاء لمخدوميهم ، إلا فى بعض حالات نادرة ، كذلك الخادم الذى كان يخدم فى بيت الشاعر الفاضل « علم الدين بن المرصص » من فضلاء مدينة

الفسطاط ؛ فلما مات الشاعر أخذ الخادم بعض كتبه وهرب بها. وفُهم بعد ذلك أن الشاعر مات مخنوقا ...

ولعل ماكان يحدث من الاحتفال بمولد النبي عليه السلام هو صورة متكررة فى الأندلس والمغرب ومصر على السواء . وإذا كانت بعض كتب التاريخ قد نقلت لنا صورا مختلفة مما كان يحدث لهذه المناسبة الكريمة فى المغرب ومصر ، فإن صورة طريفة أخرى ننقلها عن المؤرخ سبط ابن الجوزى فى كتابه « مرآة الزمان » ، فقد وصف لنا ماصنعه الأمير مظفر الدين كوكبورى أمير أربل — والمتوفى سنة ٦٣٠هـ — فى حفل أقامه لعيد المولد النبوى ، حيث حكى للمؤرخ بعض من حضر سماط ذلك الحفل فقال : (عددت على السماط خمسة آلاف رأس مشوى ، وعشرة آلاف دجاجة ، ومائة ألف زبدية ، وثلاثين ألف صحن حلوى ، ثم يخلع فيه على الأعيان ، ويفرق فيه الأموال على أقدارهم ، ولا يحضر هذا السماط أحد من عسكره ، ثم يقوم فى الميدان فيدخل الخانكاه ، وقد اجتمع فيه من الصوفية ما بين ثمانمائة إلى ألف ، فيأخذون فى السماع من بعد الظهر إلى الفجر ، وهو يرقص بينهم ، فإذا كان من الغد بعث إليهم من يكتب أسماءهم . وكل شيخ ومعه جماعة ، فبعض المشايخ على قدر

طبقاتهم من المائة دينار إلى الخمسين والثلاثين . ولأتباعهم على حدة ، ومن شاء أن يسافر ، ومن شاء أن يقيم أياماً ..) .

هذا المجتمع العربى الإسلامى فى القرن السابع الهجرى مابين مغرب ومشرق ، قد شاهده ابن سعيد المغربى ، وخالط أهله ، وشارك فيه على قدر ماسمحت له ظروفه ، وترك لنا منه بعض اللقطات والملامح الذكية التى بقيت منها بقية فى بعض مؤلفاته ، لتدلنا على مبلغ ماوصل اليه المجتمع العربى المسلم المتطور على مدى العصور .

بقى أن نقول إن الذى لاحظه ابن سعيد من كثرة اشتغال اليهود والنصارى فى دواوين مصر فى عصره قد لاحظه أيضاً الشاعر الأندلسى ابن عتبة الأشبيلى[1] الذى وفد إلى مصر قبل ابن سعيد بسنوات قليلة . فلما سأله جمال الدين بن يغمور نائب سلطان مصر عن أخبار بلاده الأندلس ، أجابه بأنه يشتهى الرجوع إليها على الرغم مما فيها من الاضطراب ؛ لما يعانيه فى مصر من كثرة اشتغال النصارى واليهود فى الدولة ، وأنشد شعرا يقول فيه :

(١) اختصار القدح المعلى ص ١٦٤

أصبحت فى مصر مستضاما
أرقص فى دولة القرود
واضيعة العمر فى أخـــير
مع النصارى أو اليهود
أود من لؤمهم رجوعاً
للغرب فى دولة ابن هود[١]

(١) دولة ابن هود هى دولة محمد بن يوسف بن هود التى اضطرب أمرها فى الأندلس فى الثلث الأول من القرن السابع كما سلف القول عن الحياة السياسية

حـ - الحياة الفكرية

على الرغم من الأحداث السياسية الكبرى والهزات العنيفة التى أحاطت بالعرب والمسلمين فى القرن السابع الهجرى ، فإن الحركة الفكرية فيه لم تخمد جذوتها . لقد بقى ذلك النشاط الذهنى عند العرب والمسلمين ساطعا غير خامد ، وكأن الشعلة المضيئة فى العصر العباسى ظلت فيها عناصر الضوء والنور التى كانت تمدها بأسباب البقاء حتى فترة من العصر المغولى الذى حصلت فيه نكسة فكرية امتدت إلى العصر العثمانى المظلم .

وإذا أمسكنا بطرف الخيط العربى الأسلامى من الأندلس — وهى أقصى مابلغه المسلمون غربا فى أوربا — وجدنا أن انتقاض أمر العرب فى الأندلس منذ القرن السابع الهجرى ، وعدوان نصارى الأسبان عليهم ، وكثرة غاراتهم عليهم وتصميمهم على طردهم من البلاد قد أثر فى الحياة العقلية أيما تأثير . كما أن اضطراب الأمور فى المغرب لم يدع مجالا للحركة الفكرية أن تزدهر . ولا نستثنى من ذلك فى الشمال الأفريقى إلا تونس . فإن الأمراء الحفصيين كان لدولتهم نوع من الاستقرار السياسى

وثبات الكيان مكنهم من إنجاز إصلاحات كثيرة فى العمران والتوسع والنهوض الفكرى والازدهار الأدبى . فلقد كان الأمير أبو زكريا يحيى الحفصى – رابع حكام هذه الدولة – أميراً مصلحاً عالماً محباً للعمران ، فشيد كثيراً من المساجد والمدارس ، وابتنى فى قصره بالقصبة داراً فخمة للكتب ، جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد تشتمل على أنفس ماصنف فى العلم والمعرفة .

وكذلك كان ابنه الملقب بالمستنصر بالله . فقد فتح قصره للوافدين على أبيه وخاصة من الأندلس ، مابين عالم وشاعر وأديب ، من أمثال ابن حازم القرطاجنى الشاعر البلاغى ،وابن الأبار القضاعى العالم المؤرخ صاحب كتاب « الحلة السيراء » وهو من مصادرنا الوثيقة عن الأندلس ، والتيفاشى العالم الأديب المؤرخ ، وأبى عبد الله محمد بن خطاب الهنتانى ، وأبى المطرف ابن عميرة المخزومى ، وأبى العباس اللُّيانى الغسانى لسان الدولة الحفصية وكاتب سرها ، وابن سعيد المغربى وغيرهم .

أما فى مصر والشام فقد كان الأيوبيون – على الرغم من

كرديَّتهم — يشجعون العربية ورجالها ، ويقربون إليهم أدباءها وشعراءها . فقد كان الملك الكامل — فى القرن السابع — ينشىء المعاهد والمدارس ، ويشجع العلم والعلماء ، ويجلس إليهم للمناقشة معهم وسماع حديثهم فى ليالى الجمعة ، وكان الملك الناصر ابن الملك المعظم عيسى مشتغلا بجمع الكتب النفيسة وإجازة الأدباء ، وكان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق محباً للأدب والأدباء ، مثيباً لهم ، حتى جعل لكل من يحفظ كتاب « المفصل » للزمخشرى مائة دينار وخلعة . وكان الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق يحب الأدب والأدباء والشعر والشعراء ، وله مع ابن سعيد المغربى مداعبات ظريفة سنذكرها فى موضعها من الكتاب . على أن بعض ملوك الأيوبيين كانوا علماء أو شعراء . فهذا بهرام شاه بن فرخشاه الأيوبى صاحب بعلبك والمتوفى سنة ٦٢٨هـ ، كان شاعرا رقيقا ، وله البيتان المشهوران :

دعوتُ بماء فى إناء فجاءنى
غلامٌ بها صرفا فأوسعتُه زجرا
فقال : هو الماء القراح وأنما
تجلى بها خدِّى فأوهمك الخمرا .. !

وما عرف انصراف عن مطالعة الكتب ومراجعة العلوم عند واحد من الأيوبيين فى القرن السابع كما عرف عن الملك الصالح نجم الدين أيوب . وقد لاحظ ذلك عليه المؤرخ ابن واصل صاحب كتاب « مفرج الكروب » ، وإن كان لاحظ عليه حبه لأهل الفضل والدين ، كما لاحظ عليه شدة المهابة والوقار ، وحبه للعمارة والأبنية العظيمة ومباشرتها بنفسه ، وهو الذى أعاد بيت المقدس للمسلمين سنة ٦٤٢هـ .

أما فى العراق وسائر المشرق فكانت حركات الأدب والعلم والفكر عامة بخير .

وما خلا ميدان من ميادين التأليف من كتب كثيرة ثمينة ألفت فى ذلك العصر . وما أكثر ما ظهر العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء واللغويون والمؤرخون وكتاب السير والتراجم . ففى مجال التاريخ ظهر مؤرخون للبلاد والأقاليم ، كما ظهر مؤرخون للدول والممالك ، ومصنفون للتاريخ العام ، فمن مؤرخى البلاد عبد الواحد المراكشى صاحب « المعجب فى تلخيص تاريخ المغرب » ، وابن عذارى المراكشى صاحب « البيان المغرب » ، وعبد اللطيف البغدادى صاحب « الإفادة والاعتبار » ومن مؤرخى الدول والممالك : أبو شامة صاحب

« الروضتين فى أخبار الدولتين » ، وابن العديم — صديق ابن سعيد المغربى ونصيره — صاحب « زبدة الحلب ، فى تاريخ حلب » ، وجمـــال الدين بن واصل صاحب كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » . ومن مؤلفى التواريخ العامة عز الدين بن الأثير صاحب « الكامل » ، وسبط ابن الجوزى صاحب «مرآة الزمان » ، والمكين بن العميد صاحب « المجموع المبارك » ، وابن الملطى صاحب « تاريخ مختصر الدول » .

وقد ظهرت فى ذلك العصر كتب لا بأس بها فى التراجم والسير . فهناك تراجم الأطباء مثل كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة . وهناك تراجم الكتاب والمنشئين كما فعل ابن الأبار القضاعى — صديق ابن سعيد المغربى — فى كتابه « إعتاب الكتاب » ، وهناك تراجم الحكماء كما فعل القفطى ، وتراجم رجال الحديث كما فعل المنذرى وابن النجار ، وهناك التراجم لطوائف وطبقات من الرجال عامة كما فى « معجم الأدباء » لياقوت الرومى ، وفى « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، وهناك التراجم لأشخاص بعينهم ، كل شخص فى كتاب مستقل قائم بسيرته ، كما فعل ابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢هـ فى سيرته لصلاح الدين الأيوبى .

وفى ميدان التراجم للرجال تجلت القيمة العلمية لما خلفه ابن سعيد المغربى فى هذا الباب ، من أمثال « المغرب » و« القدح المعلى » و « الغصون اليانعة » وهى كتب سنتناولها بالحديث كتابا كتابا فى معرض الحديث عن مؤلفات ابن سعيد ...

ومادام ابن سعيد المغربى شاعرا وكان له ديوان ضائع ، فلا بد هنا من كلمة عن الحركة الشعرية فى القرن السابع الذى عاش الرجل فيه ، والحق أن الشعر بدأ ينزل من المكان الرفيع الذى احتله إلى مكان أقل مما كان عليه فى القرن الرابع وأوائل الخامس الهجرى ، وقد غلبت فيه الصنعة اللفظية أكثر من الاحتفال بالمعانى ، وأصبحت أغراض الشعر القديمة سائدة وزادت عليها أغراض أخر . ولم يخرج ابن سعيد المغربى الشاعر عن إطار عصره ولا ذوقه ، واستطاع أن يجارى شعراء مصر والشام فى أغراضهم ومطارحاتهم . ونستطيع أن نعد عشرات من الشعراء الذين عاشوا فى القرن السابع فى مختلف أقطار العالم العربى الإسلامى كله . فهناك ابن الساعاتى ، والأسعردى ، والياروقى ، والصرصرى ، وابن الحلاوى ، وشميم الحلى ، والتلعفرى ، والشاب الظريف ، وابن النبيه ، والبوصيرى صاحب البردة ، وابن الفارض الشاعر الصوفى ، وجمال الدين بن مطروح ، والبهاء زهير ، وأيدمر

المحيوى ، وابن سهل الأندلسى ، وحازم القرطاجنى ، والجزار المصرى ،وابن الأبار القضاعى الأندلسى وغيرهم .

وقد أتاحت الظروف ومكنت الجولات الدائمة لابن سعيد المغربى أن يلقى كثيرا من هؤلاء الشعراء ، وأن يعقد معهم صلات الود ، وله مع كثير منهم منادمات ومطارحات ستأتى فى موضعها من هذا الكتاب .

الفصل الثانى

ابن سعيد المغربى فى عصره

١ - سيرة موجزة

إن العبارة التى جاءت فى كتاب « المغرب » لابن سعيد المغربى بقلمه فى ترجمة حياته تقول : (على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد) ويقول عنه صاحب نفح الطيب إنه : (أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى) . ويقول عنه لسان الدين بن الخطيب فى كتابه الإحاطة . (على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان ابن عبدالله بن سعد بن عمار بن ياسر بن كنانة بن قيس بن الحصين العنسى المدلجى)[١] وهذه أطول تسمية ونسب لابن سعيد المغربى وإن كان قد جاءت فى مقدمة كتاب «عنوان المرقصات المطربات»

---

(١) هكذا ورد فى نفح الطيب ، وهو تحريف مطبعى صوابه : المذحجى ، نسبة إلى مذحج بن أدد . انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم . طبعة دار المعارف صفحة ٣٨٢ ، ٣٩٢ .

لابن سعيد المغربى سلسلة من النسب تختلف عما جاء فى الإحاطة بعض الشىء ، وإن كان ابن شاكر الكتبى فى « فوات الوفيات » قد جاء باسم الرجل ونسبه هكذا : (على بن موسى بن سعيد المغربى) .

ولقد ترجم ابن سعيد المغربى لنفسه فى كتابه « المغرب » ترجمة وجيزة جداً على منهجه فى التراجم . ولكنه أطال مقدارها بما رواه لنفسه من الأشعار بعد ذلك . ولنستمع إليه وهو يقول عن نفسه : (هو مكمل تصنيف هذا الكتاب ، ولد بغرناطة فى شوال سنة عشر وستمائة ورحل منها فجال مع أبيه فى بر الأندلس وبر العدوة والغرب الأوسط وأفريقية إلى الإسكندرية . وترك والده بالأسكندرية ورحل الى القاهرة ، ثم عاد إليها لحضر وفاته ثم رجع إلى القاهرة ثم رحل إلى حلب فى صحبة الصاحب الكبير المحتسن كمال الدين بن أبى جرادة، ثم عزم على الحج فى هذه السنة وهى سنة سبع وأربعين وستمائة ،يسر الله ذلك بمنه) .

هذا ما كتبه الرجل عن نفسه فى كتابه . ولكن تصادفنا فى اختصار كتاب له آخر : « القدح المعلى » ترجمة له وتعريف به افتتحت بها تراجم الكتاب . ونكاد نجزم بأن هذه الترجمة ليست بقلم ابن سعيد المغربى ، لأن رجلا — مهما كان رأيه فى نفسه —

لا يقول عن نفسه : (بحر لا يمتطى ثبجه ولاتخاض لججه، علامة الأعلام ، وراوية الجاهلية والأسلام . مالك عنان البيان ومصرفه . . . . .) ويلاحظ فى الترجمتين الأولى والثانية أنهما بضمير الغائب لا بضمير المتكلم ، فلا يقول : ولدت ، ورحلت ورجعت ، وعزمت ، بل يقول : ولد ، ورحل، ورجع ،وعزم. وعلى كل حال نستطيع أن نقدم هنا خلاصة وجيزة لسيرة الرجل مشتقة مما كتب عنه فى القديم والحديث ، ومشفوعة بالتمحيص الدقيق الذى هدانا إليه البحث والمراجعة والمقابلة فنقول :

ولد على بن موسى بن سعيد المغربى فى قلعة يحصب(١) أو قلعة بنى سعيد بغرناطة سنة ٦١٠ هـ(٢) وكانت تعرف بقلعة « أسطلير » نسبة إلى عين ماء قريبة منها. وبيتهم عريق فى الشرف والفضل والرياسة . ويكفى أنهم يذهبون بنسبهم إلى عمار بن ياسر الصحابى الجليل . أما جده محمد بن عبد الملك فكان وزيرا مقدما عند ابن غانية ، وتولى أعمال أشبيلية وغرناطة فى عهد الموحدين وكان ممدوحا للرصافى شاعر الأندلس فى وقته .

---

(١) ورد اسمها فى ترجمة دائرة المعارف الأسلامية «يعصب» بالعين لا بالحاء وهو وهم من المترجم

(٢) نقل محرر دائرة المعارف الأسلامية قولا آخر عن مولد ابن سعيد المغربى سنة ٦٠٥ هـ وهو قول ضعيف .

ويظهر أن اضطراب الأمور فى الأندلس لم يرض أباه ولم يرضه هو فقررا السفر شرقا إلى مصر للحج أولا ، وللهجرة ثانياً ، فمرا فى طريقهما بالمغرب وتونس ثم بلغا الأسكندرية سنة ٦٣٩ هـ فترك صاحبنا والده وسافر إلى القاهرة حيث ودعه أبوه بقصيدة تعد من أدب رسائل الآباء إلى الأبناء ؛ وعاد إلى الأسكندرية ليحضر وفاة والده سنة ٦٤٠ هـ

وانتقل على بن سعيد إلى القاهرة وحيدا ، وظل بها بضع سنوات ، وكان سلطان مصر حينئذ الملك الصالح نجم الدين الأيوبى . وليس عندنا ما يقطع باتصال ابن سعيد بالملك الصالح الذى كان منعزلا عن المجالس الأدبية والعلمية ، ولكنا نعلم أنه اتصل بجمال الدين بن يغمور الذى ناب عن السلطان فى مصر ودمشق . وأعجب ابن‌سعيد بعلم ابن يغمور وأدبه وشجاعته فصنف له كتاب « رايات المبرزين » .

ووفد إلى مصر القاضى العالم المؤرخ الوزير كمال الدين ابن العديم[١] سنة ٦٤٤ هـ رسولا من الملك الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب والشام إلى السلطان الملك الصالح ، وجمع

---

(١) هو كمال الدين عمر بن أبراهيم بن أبى جرادة المشهور بابن العديم

الحظ الحسن بين الرجلين فأعجب ابن العديم بابن سعيد المغربى فوالاه برعايته وبره ، وعرض عليه السفر معه إلى حلب ليقدمه إلى الملك الناصر ، واستجاب ابن سعيد لهذا العرض لما سمعه عن الملك الناصر وحبه للأدب والشعر .

وسافر بصحبة ابن العديم ودخل معه عليه وأنشده قصيدة لبقة كيسة المطلع حيث يقول :

جُد لى بما لقى الخيال من الكرى
لابد للضيف الملم من القِرى!

وطرب ابن العديم لهذا المطلع الذى يدل على مقصود الشاعر من أول بيت فى القصيدة .. !

ولقى ابن سعيد المغربى فى بلاط الملك الناصر جماعة من العلماء والأدباء سنذكرهم فى موطن آخر

وانتقل ابن سعيد إلى دمشق(١) ، ثم دخل الموصل وبغداد،

---

(١) كثيرا ماسمع ابن سعيد المغربى الشاعر بن مفرج الأشبيلى يطنب فى الثناء على دمشق ويصف محاسنها . فيمتلىء خاطر ابن سعيد من شكلها ويتمنى على الله أن يراها إلى أن حقق الله أمله (القدح المعلى ص١٨١)

وعاد إلى دمشق ، وهنا – وفى سنة ٦٤٨ – لقى الملك المعظم توران شاه فى طريق عودته من حصن كيفا إلى مصر ليخلف أباه الملك الصالح على عرش مصر حينما أحست «شجرة الدر» بدنو أجله ، وقد أدناه المعظم توران شاه منه وأدخله مجلس خلوته .

وبعد أن أدى ابن سعيد فريضة الحج عاد إلى تونس سنة ٦٥٢هـ واتصل بخدمة أميرها أبى عبد الله المستنصر الحفصى وكان يعرفه منذ مروره عليها خارجا من الأندلس سنة ٦٣٩ هـ فى عهد أبيه أبى زكريا الحفصى . وظل قريبا من بلاط المستنصر أربعة عشر عاما ، إلى أن عاوده الحنين إلى المشرق ثانية فرحل إليه ثانية سنة ٦٦٦هـ[1] وظل به زمنا ، ثم عاد إلى تونس ، وبقى فيها إلى أن أدركه أجله[2] فيها سنة ٦٨٥هـ .

وهنا نود أن نصحح بعض الوهم الذى وقع فيه المرحوم

(١) هذا التاريخ يرويه ابن سعيد نفسه فى كتابه « عدة المستنجز » وقد نقله عنه المقرى صاحب نفح الطيب

(٢) جرى جرجى زيدان على أن وفاة ابن سعيد سنة ٦٧٣هـ وروى سنة ٦٨٥ بصيغة التضعيف ، أما الدكتور جودت الركابى فى كتابه عن الأدب الأندلسى فلم يذكر إلا سنة ٦٧٣هـ لوفاة ابن سعيد ، وترك الرواية الراجحة

الدكتور زكى محمد حسن فى أثناء تحقيقه لكتاب « المغرب — القسم الخاص بمصر » ، فقد ذكر رحمه الله (أن ابن سعيد رجع من الحجاز إلى تونس سنة ٦٥٢هـ حيث نزل عند صديقه أبى العباس التيفاشى) وهذا غير صحيح ، لأن التيفاشى مات سنة ٦٥١هـ ، فليس بمعقول أن يكون قد لقيه بعد وفاته ! والصحيح أنه لقيه قبل هذا بكثير وهو فى طريقه إلى مصر خارجا من الأندلس .

وقد يهون هذا الوهم الغليظ أمام وهم آخر وقع فيه الدكتور زكى محمد حسن فى تحقيق « المغرب » ؛ فقد ذكر أن ابن سعيد المغربى (حن إلى المشرق ثانية فرحل إليه سنة ٦٦٦هـ ، وسمع فى الأسكندرية بأعمال هولاكو ، فأحب أن يسعى إليه ، وسافر إلى حلب ومنها إلى أرمينية حيث أقام فيها مدة ضيفا على هولاكو). والذى نعرفه أن ابن سعيد لم يصادف فى حياته هولاكو المخرب التترى ، ولم يسع إلى لقائه . وإنما الذى فعل ذلك هو الملك الناصر صاحب حلب والشام ، فإنه بعد أن ضاع ملكه على يد هولاكو سار نحوه ، فلما مر بحلب ونظر إلى معاهده على غير ما يعهد قال :

مررت بجرعاء الحمى فتلفتت
لحاظى إلى الدار التي رحلوا عنها

ولو كان عندى ألف عين وقمت فى
معالمها عمرى لما شبعتْ منها

وصنع فى نعيها أشعاراً يغنى بها المسمعون — وكان الناصر شاعراً أديباً — ثم رحل إلى صحراء يوشن فى جهة طريق أرمينية فوجد هولاكو هناك فى تلك المروج المشهورة بالخصب ، فأنزله وأقام يشرب معه ، ومكث فى ضيافته أياما إلى أن جاءت الأخبار بهزيمة التتر على يد المظفر قطز فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٧هـ ، فقتلوه .

ولقد دخل الوهم إلى الدكتور زكى محمد حسن من قراءته للخبر فى نفح الطيب(١) ، فإن الضمائر تعود كلها إلى الملك الناصر ، فتوهم الدكتور زكى حسن أنها عائدة على ابن سعيد المغربى ، وأسس عليها من النتائج ما أسس . .

(١) نفح الطيب : جـ١ ص٥٠٢

بقى أن نصحح خطأ قام حول تاريخ وفاة ابن سعيد المغربى ومكانها . وقد يحدث خطأ أو يقع خلاف حول شخص ما ، فى تاريخ وفاته أو مكان الوفاة . ولكن أنْ يقع الخلاف فيهما معا فهذا ما يصادفنا نادرا فى كتب التاريخ والتراجم والطبقات. فقد ذكر صاحب « فوات الوفيات » أن ابن سعيد المغربى توفى بدمشق فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، ويوافقه فى هذا ابن تغرى بردى فى « المنهل الصافى » . وحاجى خليفة فى « كشف الظنون » ولكن لسان الدين بن الخطيب ، والمقَّرى صاحب « نفح الطيب » وابن فرحون المالكى صاحب « الديباج المذهب » يتفقون على أنه توفى بتونس سنة ٦٨٥هـ . أما المؤرخ المصرى السيوطى فله موقفان من هذه القضية ، فنى كتابه « حسن المحاضرة » يذكر أنه توفى بتونس سنة ٦٨٥هـ ، وفى كتابه « بغية الوعاة » يذكر أنه توفى سنة ٦٧٣هـ (١).

(١) لقد وقف المستشرق الأسبانى أميليو غرسيه غومس هذا الموقف فى كتابه « الشعر الأندلسى » الذى عربه الدكتور حسين مؤنس ، فذكر التاريخين معا ولم يتحيز إلى واحد منهما ، وذكر التاريخين معا كذلك محرر مادة « ابن سعيد » فى دائرة المعارف الاسلاميه ، ويظهر من تقديمه لتاريخ ٦٧٣هـ أنه يؤثره على التاريخ الثانى . وقد انفرد محرر هذه المادة بقول جديد عن مكان وفاة ابن سعيد ، وهو أنه توفى أثناء عودته إلى دمشق . . . .

وقد ينفعنا فى تحقيق هـذه القضية النص الذى جاء فى نهاية كتاب « الغصون اليانعة » لابن سعيد المغربى نفسه، فقدجاء فيه أن هذا الكتاب (كتب فى التاسع والعشرين من جمادى الآخرة عام خمسة وثمانين وستمائة) أى أنه فرغ منه قبل وفاته بشهرين إن صح أن وفاته كانت فى شهر شعبان .

ومن أغرب ماشهدناه من القضايا حول نسب ابن سعيد المغربى الأندلسى أن بعض مؤرخى الأدب نسبوه إلى تونس، فقالوا عنه ابن سعيد التونسى . . . وذلك لطول أقامته فى تونس مستظلا بحماية أميرها المستنصر الحفصى ووالده من قبله. ونجد هذا النسب فى كتاب « عنوان الأريب » للعلامة المغفور له الشيخ محمد النيفر . وبهذا اجتمعت لابن سعيد خمس نسب : العنسى ، المغربى ، الأندلسى ، التونسى ، المذحجى[1].

(١) العنسى نسبة إلى عنس وهوعنس بن مذحج بن أدد، جد الصحابى عمار ابن ياسر . انظر جمهرة أنساب العرب . والمذحجى نسبة إلى مذحج بن أدد .

شيوخه وأساتذته وزملاؤه فى الطلب

نقل صاحب « نفح الطيب » عن لسان الدين بن الخطيب صاحب « الأحاطة » أن ابن سعيد المغربى (أخذ من أعلام أشبيلية كأبى على الشلوبين ، وأبى الحسن الدباج ، وابن عصفور وغيرهم)[1] .

والحق أن والده موسى بن سعيد المغربى يأتى على رأس قائمة الشيوخ الذين أخذ ابن سعيد عليهم وتخرج بأدبهم مما يجعله حقيقا بفصل خاص نعقده له . وقد كنا سنقف عند شيوخ ابن سعيد المغربى إلى هذا الحد ، لو لم يطبع كتابه « المغرب فى حلى المغرب » بعناية الدكتور شوقى ضيف وتحقيقه ، فقد أفادنا هذا النص الثمين المطبوع بأسماء شيوخ لابن سعيد كان يشير إلى تتلمذه عليهم ، وأخذه عنهم وهو يترجم لهم تلك التراجم الرقيقة الرشيقة فى كتابه . فممن جاء ذكرهم فى « المغرب » : الأعلم البطليوسى ، والهيثم بن أحمد بن الهيثم ، وأبو العباس النيـار

---

(١) نفح الطيب جـ١ ص ٤٥٠

الأشبيلى . وممن جاء ذكرهم فى « القدح المعلى » موسى بن على الطريانى ، وأبو الحسن حازم بن حازم القرطاجنى ، وابن الحاج الأشبيلى .

فأبو على الشلوبين كان — كما يروى السيوطى — أمام عصره فى العربية بلا مدافع ، بارعا فى التعليم ، ذا معرفة بنقد الشعر . وقلما تأدب بالأندلس أحد من أهل القرن السابع إلا أخذ عنه ، وقرأ عليه . وأبو الحسن الدباج هو على بن جابر النحوى المقرىء ، ساد أهل عصره فى العربية ، وتوفى بأشبيلية بعد أن سقطت فى يد نصارى الأسبان سنة ٦٤٦ﻫ ، ويروى ابن العماد الحنبلى فى وفاته أنه (هاله نطق الناقوس وخرس الأذان ، فما زال يتلهف ويتأسف ويضطرب إلى أن قضى نحبه . . .) . وابن عصفور على بن مؤمن الأشبيلى هو — كما ينقل السيوطى فى البغية — حامل لواء العربية فى زمانه بالأندلس ؛ جال بالأندلس وأقبل عليه الطلبة ، وكان أصبر الناس على المطالعة لا يمل من ذلك ، وبرع فى النحو إلى حد لم يدانه فيه غيره من أهل عصره .

والأعلم البطليوسى هو أبو إسحاق إبراهيم البطليوسى . كان

متصدراً للإقراء فى أشبيلية ، وقد احتمله تلميذه ابن سعيد المغربى على مافيه من صعوبة فى الخلق ، وغرور بالنفس . فقد كان يزعم أنه لم يخلق الله تعالى من يؤلف مثل كتبه فى فنون العرب ! وكان والد ابن سعيد يعجب من تبرم هـذا العالم بالزمان ، ووقوعه فى الأخوان وأصحاب السلطان . وهو غير الأعلم المشهور ؛ فهذا اسمه يوسف بن سليمان الشنتمرى وكان سابقا على هذا العصر بأكثر من مائة وخمسين عاما . والهيثم بن أحمد بن الهيثم كان حافظ إشبيلية ، واشتهر بالحفظ إلى حد شهد له به ابن سعيد المغربى بقوله : (لم ألق بها — أى بأشبيلية — أحفظ منه ، وكان والدى يتعجب منه . ومن أعجب عجائبه أنه كان يملى على شخص شعراً ، وعلى ثان موشحة ، وعلى ثالث زجلا ، وكل ذلك ارتجال دون توقف ...) ، وكان نابه الذكر فى عهد مأمون بنى عبد المؤمن ، وكتب له مدة . وموسى ابن على الطريانى — كما يقول عنه ابن سعيد — شيخ نحوى ، أديب ظريف ، كان ينظم الشعر فى الغزل ، ثم نظم فى أغراض أخر فأحسن وأبدع . وأبو الحسن حازم القرطاجنى أديب شاعر[1] يقول عنه تلميذه ابن سعيد : (شعره يطوى الأقطار

---

(١) هو بلاغى أيضا وله كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » وقد =

وذكره منشور، وهو فى نظمه طويل النفس ، منير القبس ، مقتدر على حوك الـكلام ، مديد الباع فى ميدان النظام ، لا يخلو من الألفاظ المبتدعة ، والمعانى المولدة والمخترعة) وكان من الوافدين على بلاط المستنصر بالله الحفصى أمير تونس ، فأحسن هذا إليه ، وأدناه منه . ويعترف ابن سعيد بأنه استفاد من آدابه . . وحازم القرطاجنى هو صاحب القصيدة الألفيـــة المقصورة التى قالها فى مدح المستنصر الحفصى . وابن الحاج الأشبيلى شاعر أديب ذواقة ، جالسه ابن سعيد قبل رحلته إلى المشرق وترجم له فى « القدح المعلى » .

ولم يتكبر ابن سعيد المغربى على طلب العلم فى أية لحظة من عمره ، ففى رحلته إلى الشام لقى هناك المؤرخ الجليل «أبا شامة» صاحب كتاب «الروضتين» ومختصر «تاريخ دمشق» لابن عساكر، فجلس ابن سعيد من أبى شامة مجلس التلميذ يسمع عليه منه ما يتيسر(١) من ذلك المختصر .

= عقد له الدكتور عبد الرحمن بدوى فصلا خاصا فى كتاب « إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين » ص ٨٥ كما تناوله الدكتور بدوى طبانة بدراسة جيدة فى كتاب « البيان العربى » طبعة رابعة

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٤٦٥

وقد جرى ابن سعيد فى الاستماع إلى الشيوخ والأساتذة على أدب رفيع ، وحين أحسَّ يوماً بأنه ربما يكون قد شغب فى مجلس أبى العباس أحمد بن الحاج الأشبيلى ، فأنه بادر بالاعتذار إليه فى شعر يدل على أدب نفسه . ورقة حسه يقول فيه :

عذرا لفضلك يا أستاذ من صخبى
إذ ليس يخلو ذوو الآداب من شغب!

فالكل منهم يروم السبق مجتهدا
لكى يرى سابقا نوعا من الغلب

وما نطقت بشىء قد نطقت به
إلا وقد ملكتنى نشوة الأدب!

هؤلاء هم بعض شيوخ ابن سعيد المغربى الذين وصل إلينا علمهم . على أن من الطريف ألا يفوتنا ذكر بعض زملائه فى الطلب ، ورفاقه فى الدرس ، وقد كان هو يشير إليهم فى خلال ترجمته لهم . ويدون لنا بعض الطرائف عنهم . وكان من زملائه الشاعر الأندلسى الرقيق ابن سهل الأسرائيلى ، فقال عنه فى « المغرب » : (قرأت معه فى أشبيلية على أبى الحسن الدباج وغيره . وكان من عجائب الزمان فى ذكائه على صغر سنه ؛ يحفظ

الأبيات الكثيرة من سمعة ...) ، وقال عنه فى « اختصار القدح المعلى » : (لم يشتهر بأشبيلية شاعر بعد ابن الصابونى اشتهاره ، ولا حاز انطباعه فى الشعر واقتداره ... قرأت معه على الأستاذ أبى الحسن الدباج زمانا ، وبادرنا لأنواع اللذات ميدانا فميدانا ..)

ومن زملائه فى الطلب أيضاً الأديب الشاعر محمد بن عمر الأندى ، فقد اجتمعا معا على مقاعد الدرس أمام أبى على الشلوبين إمام نحاة المغرب وشيخ ابن سعيد المغربى كما سبق القول . وترجم له فى « المغرب » ترجمة وجيزة يقول فيها : (وشاهدت منه ذكاء مفرطا ، وإن طال به المدى فسيستولى على المدى ، وتركته وقد رجع من أشبيلية إلى بلده ..)

أصدقاء فى الأندلس والمغرب

نستطيع أن نستظهر مما كتبه ابن سعيد المغربى فى « المغرب » و « القدح المعلى » و « الغصون اليانعة » أنه كان رجلا اجتماعيا بما تحمله الكلمة من معانٍ ، وأنه كان ألوفاً ، سمح الخليقة ، سهل المعاشرة ، يَألف ويؤْلف . وسنتحدث فى الفصل الخاص بأخلاقه عن مجاملته ومسايرته وملاطفته للناس وظرفه البالغ ، وهى صفات تحبب صاحبها إلى الناس ، وتجعلهم يحرصون على مودته . وقد كان ابن سعيد وهو فى تونس — بعد رحيله من الأندلس — يحن إلى وطنه وأصحابه فيه ، وهم الذين قضى معهم لبانات الشباب ... وكان وهو فى مصر يحن إلى أصحابه فى تونس والأندلس ، فلما انتقل إلى الشام كان دائم الحنين إلى أصحابه فى مصر وتونس والأندلس ...

وهو لا ينسى لذوى الفضل من أصحابه ومخالطيه فضلهم ، وقد سجل ذلك على نفسه فيما كتبه من تراجم لأخوانه فى الغرب والشرق على السواء . فنى ترجمته للبياسي الأديب المؤرخ المشهور يقول : (.. وفى جميع ذلك استفدت من فنونه وآدابه

مالا أنسى به ذكره)[١] . وتختلف صلاته فى الأندلس وشمالى أفريقية بين مقابلة ، ومزاملة فى الدرس والطلب ، ومنادمة ، ومجالسة ، ومعاشرة ، ومطارحة . فمن زملائه فى الطلب الأندى والشاعر ابن سهل الإسرائيلى ، كما سبق القول ، وكانت بينه وبينهما صحبة وثيقة، ومودة أكيدة، عقدتها المشاركة فى الدرس أولا ، والموافقة فى الميول ثانيا . أما الذين قابلهم ابن سعيد أو لاقاهم فى الأندلس فكثيرون ما بين أديب وكاتب وشاعر ووزير وعالم ومؤرخ ، منهم رضوان بن خالد ، ويصفه بأنه من أظرف الأدباء زيا ومجالسة[٢]. والأديب الطبيب الوشاح يوسف ابن عتبة وقد اجتمع به فى أشبيلية[٣]. والكاتب أبو بكر بن عمار الذى خدم بالكتابة المتوكل بن هود أمير الأندلس فى منتصف القرن السابع . وأحمد بن طلحة ، الذى اشتغل بالكتابة أيضاً للمتوكل محمد بن هود ، ويشهد ابن سعيد بأن له شعراً فى الطبقة العالية ثم يورد بعض قطع منه[٤] . وابن الصابونى الإشبيلى الشاعر ، وقد ترجم له فى المغرب ، والقدح المعلى ، ورايات المبرزين ، وأشار إلى اجتماعه به فى أشبيلية . والقرمونى الشاعر الذى لقيه بمدينة قرمونة ، وأنشده أشعارا لم يملك ابن سعيد نفسه من الحكم عليها بأنها ضعيفة ، ولم يمنع

(١) اختصار القدح المعلى ص ٩٤ (٢) المغرب جـ ١ ص ٤٣٧
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨ (٤) المغرب جـ ٢ ص ٣٦٤

ضعفها من تعلقها بخاطره وروايتها فى كتابه[١] . وابن الفضل الشاعر الذى اتصل بالمتوكل بن هود ومدحه بقصيدة لم يعجبه مطلعها فانتقده ، وكان ابن هود يتذوق الشعر والأدب .

وابن جحدر الذى جمع بين الشعر والزجل ، وقد ترجم[٢] له ابن سعيد فى المغرب ، والقدح المعلى ، ووصفه بأنه زجال مطبوع . وأبو الوليد الشقندى الأديب الشاعر الذى تولى القضاء فى بعض كور الأندلس ، وقد لقيه ابن سعيد فى أشبيلية ، وعبر عن هذا اللقاء بقوله : (وأبصرته) ولم يقل : قابلته أو لقيته أو جالسته على عادته فيمن يترجم[٣] لهم .

وممن اختصهم ابن سعيد بالمجالسة الأديب الحافظ أبو محمد عبد الحق الزهرى القرطبى ، وقد ترجم له فى « القدح المعلى » ، و « المغرب » ، وقال عنه فى القدح المعلى : (وكثيرا ماجالسته بأشبيلية ومالقة فرأيته من الممتعين ، وكأنما يغرف من ماء عذب معين) . والأديب محمد بن عسكر قاضى مالقة وقد ترجم له فى المغرب ، والقدح المعلى[٤] ، وشهد له بأنه انتفع به وبكتبه وبمجلسه . وكان

---

(١) المغرب جـ١ ص ٣٠٠ (٢) المصدر نفسه ص ٢٦٢
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٤ (٤) المغرب جـ١ ص ٤٣١ ، واختصار القدح ص ١٣٠

لابن عسكر غزل رقيق إلا أنه كان يتحرج من إنشاده حتى لا يخل بمنصبه فى القضاء ، ولكن ابن سعيد استطاع بلباقته أن يجعله ينشده شيئا من غزله اللطيف الذى أنشده إياه وناشده — بفضله — أن يكتمه عنه فلا يرويه . وقد وفى ابن سعيد بالعهد ، ولم ينشر هذا الغزل إلا بعد وفاة صاحبه سنة ٦٣٨ ﻫ ، أى قبل أن يغادر ابن سعيد الأندلس بعام واحد . ولا نجد أحلى فى هذا المقام من نشر هذا الغزل المكتوم بعد أن طوى صاحبه الزمان :

أهواك يا بدر ، وأهوى الذى
يعذلنى فيك ، وأهوى الرقيب

والجار والدار ومن حولها
وكل من مر بها من قريب !

ما إن تنصرت . . . ولكننى
أقول بالتثليث قولا غريب

تطابق الألحان والكأس إذ
تبسم عجبا ، والغزال الربيب !

وممن عاشرهم ابن سعيد فى المغرب الشاعر الأديب أبو القاسم

أحمد بن يامن[١]، وقد ترجم له فى «القدح المعلى» ترجمة تدل على شدة كلفه به، وألفته له. وابن سعيد ألوف كما سبق القول، وقد بلغ من ألفته لابن يامن وشدة تعلقه به أنه كان لا يغادره يوما إلا اشتاقه فى اليوم الثانى، ويقول عنه فى ذلك: «وكانت معاشرتى إياه بهذه الحضرة، وما انقطعت عنه يوما إلا وأنا أتمنى الكرة ..»

ولم يخل ابن سعيد المغربى فى مجالسه اللطيفة من مطارحة أصحابه الشعر، وله فى ذلك الميدان مقام ملحوظ. فقد كان يطارح فى الأندلس، والمغرب، وتونس، ومصر، والشام، وهى مطارحات سنشير إلى بعضها فى معرض الحديث عن شعره وشاعريته، إلا أنه لا يفوتنا هنا فى معرض الصداقة أن نشير إلى مطارحاته مع البياسى، وعبد الحق القرطبى، والفقيه أبى العباس بن بلال الذى انتفع صاحبنا بأدبه وكتبه، ولم يكد يفارقه أيام كان والياً على بلده .. وابن بلال هذا هو الذى ودع ابن سعيد المغربى بشعر رقيق مؤثر حين انفصل عن الجزيرة الخضراء بالأندلس مرتحلا إلى الشرق، يقول فيه[٢]:

---

(١) اختصار القدح المعلى ص ٥٣

(٢) اختصار القدح المعلى ص ٨٧

أترحل يا على غدا وأبقى
وما تدرى بأنى سوف أشقى ؟
لقد أسقى غدا بكئوس وجد
بها من قبل ذا ما كنتُ أسقى
أهيم بك ارتياحا للمعالى
إذا هام الورى حباً وعشقا

وهو وإن كان شعرا عليه مسحة الفقهاء ، إلا أنه يدل على وفاء ما بعده وفاء .. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فأننا نشير هنا — على عَجَل — إلى وداع شعرى آخر ودع به الغسانى الشاعر التونسى صديقه ابن سعيد المغربى حين غادر تونس إلى مصر ، وسنذكره فى موضعه من فصل قادم .

هؤلاء جماعة طيبة ممن صافاهم ابن سعيد المغربى الود فى الأندلس والمغرب ، وهناك جماعة جمعه بهم الزمان فى تونس أزمان رحلتيه إليها ومقامه بها قريبا من أميرها المستنصر الحفصى المشهور . وبعض هؤلاء أندلسيون جمع الترحال والتجوال بينه وبينهم فى تونس ، وبعضهم تونسيون بالمولد والنشأة والإقامة. فمن الأندلسيين ابن حازم القرطاجنى الأديب الشاعر المشهور ،

وأبو عثمان سعيد بن حكم القرشى[١] ، وابن الأبار القضاعى المؤرخ الأندلسى الحجة ، وابن خطاب الهنتانى الجيانى[٢] ومن التونسيين أبو العباس الغسانى، وأحمد بن يوسف التيفاشى ، ولنا معهما لقاء خاص فى فصل مقبل ..

ونلاحظ أن كثيرا ممن لقيهم ابن سعيد المغربى فى الأندلس عرفهم أو اتصل بهم عن طريق والده موسى بن سعيد الذى كان عالما أديبا وشاعرا قارئا نهما للكتب . وكثيرا ما نرى ابن سعيد يترجم لواحد مثل عبد الحق القرطبى فيقول عنه : « وكان والدى يكرمه لحفظه » ، أو يترجم لأبى الوليد الشقندى فيقول عنه : « وكان والدى يقدمه » ، أو يقول عن الزجال ابن جحدر : « صحب والدى مدة » ، أو يقول عن ابن الفضل الشاعر الوشاح « وكان بينه وبين والدى صداقة متمكنة » .. والحق أن مجالس العلم والتاريخ والأدب التى كان يعقدها موسى بن سعيد والد صاحبنا المترجم له كان لها فضل أى فضل فى أن يلتقى فيها ابن سعيد بطائفة كريمة من أعيان الأدب والشعر والبيان فى الأندلس فى العقود الثلاثة الأولى من القرن السابع الهجرى .

---

(١) اختصار القدح المعلى ص ٢٨ (٢) جيان كورة من كور الأندلس شرقى قرطبة .

٤ — لقاءات وصداقات فى مصر والشام

قلنا إن ابن سعيد المغربى وصل إلى مصر مع والده سنة ٦٣٩. وكما استطاع أن يعقد أسباب الألفة والوداد مع كثير من أهل الأندلس والمغرب وتونس فأنه استطاع فى مصر أن يخلق له جوا من التآلف مع كثير من أهل السلطان والأدب والشعر. وسرعان ما كان يعقد الصداقات مع كل من برزت له شهرة فى البلاد ، بل كان يعقد الصداقات مع كل من يتوسم فيه علما أو أدبا أو شعرا ولو لم يكن له حظ من الشهرة . ونشير هنا أول مانشير إلى لقائه مع جمال الدين بن يغمور الذى تولى نيابة السلطنة فى مصر والشام كما ذكرنا من قبل .

ومن الرجال الذين لقيهم على بن سعيد المغربى فى مصر : الشاعر جمال الدين بن مطروح من مواليد أسيوط ، الذى كان مقربا من الملك الصالح نجم الدين الأيوبى ، فكان ناظرا لخزانته ووزيرا له فى دمشق وتوفى سنة ٦٤٩ هـ . والبهاء زهير الشاعر الذى كان فى خدمة الملك الصالح أيضاً ، ويمتاز شعره بالرقة

والروح المصرية الخفيفة والظرف وتوفى سنة ٦٥٦ هـ . وأيدمر المحيوى التركى الذى كان من شعراء الملك الصالح ، وقد روى ابن سعيد فى كتابه المغرب أبياته التى قالها فى وصف الفسطاط وقد سمعها منه إنشاداً. والشاعر أبو الحسين الجزار[1] الذى اشتهر باستعمال المحسنات البديعية فى شعره وخاصة التورية ، كما اشتهر بخفة الروح ، ولطف الفكاهة ، ولذع السخرية ، وفيض المرح ، وهو القائل حينما عوتب على ترك الشعر والعودة إلى مهنته الجزارة :

لا تلمنى ياسيدى شرف الدين إذا ما رأيتنى قصابا
كيف لا أشكر الجزارة ماعشـ ـت حفاظا وأرفض الآدابا ؟
وبها أضحت الكلاب ترجيـ ـنى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ومنهم كذلك الشاعر إبراهيم بن مهلهل . والشاعر ناصر بن ناهض الحصرى . وعلى بن شاهنشاه الحداد . والعماد السلماسى عثمان ابن إسماعيل الذى تقلد نظارة البيمارستان فى القاهرة ، وكثيراً ما ينقل ابن سعيد عنه فى القسم المصرى من « المغرب » . وعبد

---

(١) يقول ابن سعيد فى وصف الحسين الجزار : (لما قدمت على الديار المصرية من بلاد أفريقية لقيت فيها ما يلقاه الغريب فى البلاد التى يقدم عليها ، ولم أجد من فيه للمروءة نصيب ولا للأدب حظ حتى لقيته فأنشدت
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

الدايم المعلم وكان يعلم الصبيان فى أحد مكاتب الفسطاط حيث التقى به ابن سعيد هناك واستنشده شعره فأنشده . وزكى الدين عبد العظيم بن أبى الأصبع الشاعر العالم البيانى المعروف، وصاحب كتاب « تحرير التحبير » فى علم البديع الذى يقول فيه ابن العماد الحنبلى إنه لم يؤلف مثله ، وتوفى سنة ٦٥٤ هـ . ونجم الدين ابن إسرائيل الدمشقى الأديب الشاعر الظريف المتوفى سنة ٦٧٧هـ كما يذكر صاحب « شذرات الذهب » . وناصر الدين الحسن ابن شاور من شعراء الفسطاط، وقد لقيه ابن سعيد فيها وشهد له بأنه (من أفراد شعراء العصر المتغلغلين فى الغوص على المعانى)(١) والرشيد أبو بكر بن عبد العظيم بن عبد القوى الذى صنف كتابا فى تاريخ مصر على حروف المعجم ، ونحا فيه منحى الخطيب البغدادى فى كتابه عن تاريخ بغداد ، ولكن الأجل لم يمهله حتى يتمه فمات كما يذكر ابن سعيد سنة ٦٤٤ هـ . وأبو بكر القسطلانى، وهو من زهاد مصر وشعرائها فى القرن السابع الهجرى ، وقد اجتمع ابن سعيد به فى داره بالفسطاط وكان فيه مروءة وأريحية، فبذل عونه لمن كان يرد على مكة وخاصة من أهل المغرب . وقد جمع إلى الشعر الفقه والحديث فكان شيخاً لدار الحديث الكاملية

---

(١) المغرب : قسم ص ٢٥٨

بالقاهرة . وأبو المكارم محمد بن عين الدولة وهو إسكندرى الأصل والمنشأ، فسطاطى المقام حيث تولى القضاء فى الفسطاط، وكان يجمع إلى القضاء ظرف الأديب ، ورقة الشاعر ، وهذا إلى زهد فيه وعفة وتورع ، فلم يتهمه أحد بدرهم واحد دخل جيبه من ناحية منصبه . . . وكان موضع التقدير والتعظيم من السلطان الكامل الأيوبى ، مع الأنس به وبمجلسه . وقد حضر ابن سعيد المغربى بمجلسه بالفسطاط فى أول عهده بمصر ، وكتب عنه بعض شعره (١) . والمجاهد طنباش الخياط الذى احترف الخياطة فى الفسطاط ، وعانى معها الشعر بعد أن تعلم النحو وقرأ الأدب . وهو يمثل لنا الشعراء المهنيين الذين جمعوا بين مهن العيش، ونظم الشعر ، كمعاصره أبى الحسين الجزار الذى سبق الحديث عنه . والنجم الريحانى الذى اشتهر بجمع نوادر الكتب ، ونفائس المخطوطات ، ودفاتر الأدب . وكثيرا ما لجأ إليه ابن سعيد المغربى يستعير منه دفاتره وكتبه ليقرأ فيها ويرجع إليها . وكان مصدراً حياً من مصادر التحقيق عند ابن سعيد . فيقول عنه تارة : (وجدت فى دفتر أعارنيه النجم الريحانى المشهور بجمع دفاتر الأدب) ، ويقول عنه تارة أخرى فى معرض الترجمة لابن

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٦ . وانظر أيضا ترجمته فى شذرات الذهب وفى حسن المحاضرة

سعد القرطى : (وسألت الريحانى عن وفاته فلم يتحققها ..)[١]
وسيف الدين بن سابق الذى ينعته ابن سعيد بالأمير . وكان أديبا شاعرا جليل القدر غواصا على المعانى ، واسمه على بن عمر ابن قزل . وكان ممدحا من الشعراء فى خلال ولايته بمصر والشام لكرمه ومروءته ، ويروى ابن سعيد بعض الشعر الذى قاله الشاعر ناصر الدين بن شاور فى مدحه[٢] . وابن سابق هذا هو الذى دعا ابن سعيد إلى مجلس له بضفة النيل مبسوط بالورد ، وقد قامت من حوله قامات النرجس قائمة ، فقال ابن سعيد فى ذلك بيتين بارعين لفتا إليه الأنظار وانتزعا إعجاب الحاضرين وهما :

من فضَّل النرجس فهو الذى   يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غـــدا قاعدا   وقام فى خدمته النرجس[٣]؟

وقد وافق ذلك وقوف مماليك الترك فى خدمة ابن سابق الذى جعله الشاعر اللبق ملكا مخدوما . ومن هنا جاء طرب السامعين . . .

والحق أن القاهرة فى عصر ابن سعيد كانت تموج بعلمائها

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٠ ، ٢٦٧ (٢) المغرب : قسم مصر ص ٢٦٠
(٣) نفح الطيب حـ ١ ص ٤٥١

وأدبائها وشعرائها ، كما كانت تموج بالعلماء والأدباء الوافدين عليها من أنحاء الأرض العربية حتى الأندلس ؛ كابن سراقة الأندلسى الذى فوض إليه أمر مدرسة الحديث الكاملية ، وابن إسرائيل الدمشقى .

هؤلاء طائفة من الرجال الذين لقيهم وصاحبهم ابن سعيد المغربى فى مصر . ولم يعدم سببا لعقد أسباب الود مع كثير من رجال الشام فى أثناء رحلته إلى دمشق وحلب . ففى بلاط الناصر الأيوبى أمير حلب لقى جماعة من أكرم رجال العصر وأنبههم ، منهم — كما يذكر المقرى فى النفح — عون[1] الدين العجمى ، والشهاب التلعفرى ، والتاج ابن شقير ، وابن نجم الموصلى[2] ، والشرف الأربلى . وفى دمشق التقى بالمؤرخ الأيوبى المشهور أبى شامة صاحب « الروضتين » وسمع عنه بعض كتبه . وما من أحد من هؤلاء القوم إلا له مقام معلوم فى العلم والأدب . فابن العجمى واسمه محمد بن كمال الدين ويلقب بعز الدين — لا عون الدين كما

(١) هكذا ورد هذا الاسم فى نفح الطيب ، وأغلب الظن أنه تحريف مطبعى وصوابه عز الدين العجمى : انظر تاريخ ابن الفرات طبع بيروت جـ٧ ص ٣٨ ، وانظر الأعلام للزركلى

(٢) لم نوفق إلى العثور على ترجمة لابن نجم — أو ابن نجيم — الموصلى . ولكن ابن سعيد يروى له من الشعر المرقص فى كتابه « عنوان المرقصات والمطربات » ويسميه فيه : شرف الدين بن نجيم الموصلى .

جاء خطأ فى النفح — كان من كتاب الإنشاء ، وكان فيه — كما يقول ابن الفرات المؤرخ — مروءة ومثابرة على قضاء حوائج الناس ، وله فوق معرفته بالفقه الشافعى مشاركة فى علوم اللغة والأدب . والتلعفرى كان شاعرا مقدما فى بلاط الناصر الحلبى ينشده شعره وينادمه بمفاكهاته وطرائفه ، ثم انتقل إلى بلاط المنصور صاحب حماة ، وكان قبل ذلك فى بلاط الملك الأشرف موسى الأيوبى صاحب دمشق . والتاج ابن شقير شاعر من شعراء الشام وفد على حلب واتصل بأميرها الناصر وكان من المترددين على مجلسه . والشرف الأربلى كان من أعيان الشعراء فى عهد الملك الناصر أمير حلب ودمشق ، واسمه — كما جاء فى فوات الوفيات — على بن عثمان بن على بن سليمان ، وكان جنديا فتصوف ولزم الزهد . ويذكر ابن شاكر الكتبى أنه توفى بالفيوم سنة ٦٧٠ هـ .

٥ — فى بلاطات الملوك والأمراء

استطاع ابن سعيد المغربى بما أوتيه من حسن المحاضرة ، وحضور البديهة ، وسعة الرواية ، وصدق الخدمة ، وظرف الحديث أن يتصل بعدد من الملوك والأمراء فى عصره ، وأن يحظى برضاهم ، وأن يعيش آمن السرب فى أكنافهم . وقد كان أكثر ملوك هذا العصر وأمرائه يحرصون على أن يجتذبوا إليهم نوابغ الرجال فى كل ميدان ، وأن يدنوهم منهم ، وأن يحيطوهم برعايتهم ، فلا يدعوهم غرضاً لظروف الزمان ، وتقلبات الأيام . وكأنما كان هؤلاء الملوك والأمراء يتنافسون فى تقريب العلماء والأدباء والشعراء إليهم ، جريا وراء طبائعهم وفطرهم ، أو طلبا للتباهى والتفاخر بأن بلاطهم هو مهوى الأفئدة ، وموئل الرجال.

ولم يشذ من هذه الظاهرة الغالبة فى عصر ابن سعيد المغربى إلا الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مصر ، فقد كان مشغولا بشئون حربية وعمرانية أخرى غير العلم والأدب . بل كان فى مجالسه الخاصة نزر الكلام من الحياء ، (وما كان له ميل إلى مطالعة الكتب والعلوم) كما يقول عنه المؤرخ ابن واصل . ومع محبته لأهل الفضل والدين كان قليل المخالطة لهم ولغيرهم،

إيثاراً منه للعزلة والانفراد . ومن هنا انقبض العلماء والشعراء والأدباء عن مجلسه كما انقبض هو فى مجالسه . ومن هنا أيضاً نجد أنه هو الملك الوحيد فى عصره الذى لم يتصل به ابن سعيد المغربى ولم يدن من بلاطه . وكيف يتفرغ ملك لمجالس الأدب والشعر مع انشغاله بالعمارة والأبنية التى كان يباشرها بنفسه ؟ ومع انشغاله بهذا العدد الهائل من المماليك الذين استقدمهم واشتراهم بطائل الأموال لحماية ملكه وثبات عرشه ؟؟ . وقد يقال إن جده صلاح الدين الأيوبى كان مشغولا بالجهاد ومحاربة أعداء العرب والإسلام طول عمره ؛ ومع هذا كان يشجع العلماء والأدباء ويدنيهم من مجالسه ، بل كان هو نفسه حافظاً للقرآن راويا للحديث ؟ ولكن طبيعة حفيده الملك الصالح نجم الدين كانت غير هذا . فقد كان كثير الصمت والوقار فى مجلسه ، والتزم جلساؤه هذا التوقر تبعاً له فكانوا يجلسون وكأن على رءوسهم الطير !! وأين هذا المجلس من مجلس الملك الناصر الأيوبى صاحب حلب ودمشق ، وهو المجلس الذى تجلى فيه ظرف الناصر وظرف ابن سعيد المغربى معا ، مما سيجىء عما قليل ؟

لقد اتصل ابن سعيد فى الأندلس — قبل مجيئه إلى المشرق —

بأمير المسلمين أبى عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر أول ملوك بنى نصر ، ورأس الدولة الغرناطية التى قدر لها أن تقاوم العدو الأسبانى لأكثر من مائتى عام إلى أن كتب الله ضياع الفردوس الأسلامى بالأندلس سنة ٨٩٧ هـ . وكان محمد بن يوسف هذا معاصرا لمحمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل ومنافسا له على السيادة فى الأندلس فى أخريات عهد الموحدين . ومن المؤسف أن ابن الأحمر لجأ إلى ملوك قشتالة النصارى الأسبان وحالفهم ليستعين بهم على منافسه محمد بن يوسف بن هود وغيره من أمراء الأندلس الطامحين . وقد نفر هذا الموقف منه كثيرا من المسلمين بالأندلس ، ولكنه استطاع أن ينشىء مملكة غرناطة التى كانت آخر ماسقط بالأندلس من ممالك العرب والأسلام .

ولقد كانت الفتن فى الأندلس فى عهد ابن سعيد بها ضارية ومائعة معاً . فلقد ثار بأشبيلية المعتضد الباجى تحقيقا لمطامحه السياسية . ولما انتصر الباجى الثائر على محمد بن هود مدحه ابن سعيد المغربى بقصيدة يقول فيها .

لله فرسان غدت راياتهم   مثل الطيور على عداك تحلق

السمر تنقط ما تسطر بيضهم والنقع يترب، والدماء تخلّق[١]

ولكن لما انتصر محمد بن يوسف بن الأحمر ـ بعد ذلك ـ على المعتضد الباجى وقتله ، انتهز ابن سعيد هذه الفرصة وهنأ ابن الأحمر بقتله للمعتضد أمير أشبيلية . وقد شهد ابن سعيد حادث مقتل المعتضد الباجى حيث كان هناك بأشبيلية ، وأنشد ابن الأحمر مدحته وتهنئته التى يقول فى مطلعها :

لمثلك تنقاد الجيوش الجحافل وتذخر أنباء القنا والقنابل[٢]

وعجيب جدا هذا الموقف من ابن سعيد المغربى ، فكيف يهنىء الباجى أولا بانتصاره على ابن هود ، وكيف يهنىء قاتله بعد ذلك بقتله ؟؟ .

الحق أن الميوعة والاضطراب والهزات النفسية فى الأندلس فى أواخر عهد الموحدين ـ أو فى الثلث الأول من القرن السابع ـ مسئولة عن هذه البلبلة والذبذبة فى الرأى والمعتقد التى تجىء دائما فى أيام الخلافات بين الأخوة المتنافسين ، بينما العدو على أبوابهم يتربص بهم الدوائر ...

---

(١) نفح الطيب حـ١ ص ٤٤٩ (٢) المغرب: قسم الأندلس جـ٢ ص ١٠٩

واسنا هنا ندافع عن ابن الأحمر ، أو ابن هود من أمراء الأندلس، ولكنا لانعفيهم - على الرغم من شجاعتهم وجهادهم - من اللوم على استعانتهم بالنصارى على بعضهم بعضا ، مما جعل بأسهم بينهم شديدا ، ومكن العدو الرابض من أكلهم جميعا فى يوم قريب أو بعيد ..

ولقد أعجب ابن سعيد بالسلطان محمد بن يوسف بن الأحمر وترجم له فى « المغرب » ترجمة وجيزة وقال عنه إنه (من عجائب الدهر فى الفروسية والإقدام ، والسعادة فى لقاء العدو ، ويفهم الشعر ويكثر مطالعة التاريخ ..) .

وحين جاوز ابن سعيد عدوة الأندلس إلى عدوة المغرب قادما إلى المشرق ، مر على مدينة « سبتة » ويظهر أنه اتصل بأميرها — أو ملكها — الموفق أبىالعباس أحمد بن أبى الفضل، ولعله فعل ذلك جريا على عادته فى ولوج أبواب السلاطين .. ولانعرف شيئاً عن صلة ابن سعيد ببلاط الموفق أبى الفضل ، ولكننا نعرف من خبر رواه صاحب نفح الطيب[1] أن المترجم له نظم قصيدة ورفعها إلى الموفق شافعا لشخص رغبفى خدمته.

---

(١) نفح الطيب جـ١ ص٤٤٦

وقد روى لنا المقرى ثمانية أبيات من هذه القصيدة الهمزية التى يقول فيها عن الشخص طالب الخدمة فى بلاط الموفق :

طلب النباهة فى ذراك فماله إلا لديك تأمل ورجاء

وهو الذى بعد التجارب أحمدت أحواله وجرى عليه ثناء

ويمضى ابن سعيد فى تزكية الطالب وإبراز صفاته الصالحة للخدمة فى بلاط الأمير . .

ويغادر ابن سعيد المغرب إلى تونس مع والده كما سبق القول، وكان ملكا عليها فى ذلك الحين أبو زكريا يحي الحفصى الذى توفى سنة ٦٤٧ هـ ، وجاء بعده ابنه أبو عبد الله محمد بن أبى زكريا، الملقب بالمستنصر. وينتهز ابن سعيد الفرصة فيمدح الملك الوالد أبا زكريا بقصائده ، ومنها الهمزية التى يقول فيها (١) :

الأفق طلق والنسيم رخاء والروض وشّت برده الأنداء

ويترك ابن سعيد تونس فى جولة إلى مصر والشام والمشرق وبغداد ، ويعود إلى تونس سنة ٦٥٢ فيجد أن صديقه أباعبد الله محمد بن أبى زكريا قد تولى عرش تونس بعد أبيه ، ويعيد

(١) من مدائحه أيضا فى الملك يحى أبى زكريا الحفصى قصيدته الحائية التى مطلعها
برح بى من ليس عنه براح .·. ومن رأى قتلى حلالا مباح
وقد نظمها تهنئة للممدوح بقتله ثائرا من قبيلة زناتة .

صاحبنا الاتصال به ، وتكون له حظوة عنده ، وينال عنده الدرجة الرفيعة .

وكان ابن سعيد فى بلاط تونس موضع المنافسة من ابن عمه الرئيس أبى عبد الله بن الحسين الذى كان مقرباً كذلك من أمراء تونس . وقد وجد الوشاة متسعاً للدس بين صاحبنا وابن عمه بما انتهى إلى التغير والقطيعة بينهما بعد أن كان قد سبقت منه إليه المدائح كقصيدته التى يقول فيها :

آه بما تكن فيك الجوانح ودموعى على نواك سوافح

ولكن ابن سعيد يطيل الاعتذاريات إلى ابن عمه ، ويسترضيه بالشعر الذى منه قوله

ومن بعد هذا قد أتيت بزلة أما حسن أن لا تضيق به صدرا ؟

وعلمك حسبى بالأمور فأننى عهدتك تدرى سر أمرى والجهرا

ويصرح ابن سعيد بأن ابن عمه هذا لم يزل يسعى فى حقه بما يخشى مغبته ، وخاف أن يطول ذلك منه فيسمع الأمير الحفصى إليه ولا ينفعه دفاع الوزير « ابن جامع » عنه ، فالتمس الإذن له بالرحيل إلى المشرق لغرض الحج[1] . وقد كان ذلك كله فى أثناء زيارته الأولى لتونس .

---

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٤

وعلى الرغم مما سلف من أبى عبد الله بن الحسين إلى ابن عمه ابن سعيد المغربى فإنه ترجم له فى « المغرب » وفى « رايات المبرزين » وأثنى عليه قائلا : (وهو فى نهاية من الكرم والسماحة والفروسية والخط والنظم والنثر)(١).

ولقد كان المستنصر الحفصى، كما كان أبوه من قبله ، من أكبر المشجعين للعلم والأدب والتعليم فى تونس ، وجعل المستنصر(٢) من قصره بالعاصمة مجمعا لرجال العلم والأدب والشعر، فاتسع لكثير من الشخصيات الفكرية البارزة وعلى رأسهم صاحبنا ابن سعيد المغربى الذى كان قد أكسبته رحلته إلى مصر والشام والعراق وإيران كثيرا من التجارب التى نفعته فى خدمة بلاط تونس .

ولم يسلم ابن سعيد فى بلاط المستنصر من سعى الساعين غير ابن عمه الرئيس أبى عبد الله ، فإن المستنصر قد جفاه فى آخر عمره بعد أن علت سنه لجراءة خدمة مالية أسندها إليه كما يقول ابن الخطيب فى الإحاطة . وكان قد بلى منه بالجفاء مرة قبل ذلك، فكتب إليه شعرا يستعطفه ويقول فى شطر مطلعه : (لا ترعى

---

(١) المغرب جـ١ ص ١٦٨

(٢) انظر فى أخبار المستنصر الحفصى كتاب « خلاصة تاريخ تونس » لحسن حسنى عبد الوهاب ص ١٠٨ ، ونفح الطيب جـ١ ص ٤٧٨ وتاريخ ابن خلدون. وقد غزا الفرنسيون فى عهده تونس، بعد حملتهم على دمياط وهزيمتهم فى المنصورة ولكن الله هزمهم وصرع ملكهم لويس التاسع بالوباء ، كما صرع كثير من الغزاة

بالجفا ثانية) ، فرق له ، وعطف عليه ، وعفا عنه إلى أن مات تحت بر وعناية . . .

هذه قصة ابن سعيد فى بلاط المستنصر الحفصى ، أما قصته فى بلاط الناصر الأيوبى صاحب حلب ودمشق فتستحق لفتةخاصة، لأن الناصر كان أديبا شاعرا وكان مشغوفا بالأدب والشعر إلى حد كبير. وكان هو نفسه ينظم الشعر ويمنح عليه الجوائز السنية، وكان بمجلسه مجلس ندماء وأدباء ، كما يقول عنه ابن العماد الحنبلى المؤرخ (١).

والوزير المؤرخ ابن العديم صاحب تاريخ حلب هو صاحب الفضل فى تقديم ابن سعيد إلى الناصر . فقد أغراه بذلك منذ قابله بمصر وهو فى سفارة خاصة بأميره . ورافق ابن العديم صاحبنا المترجم له فى دخوله على ملك حلب ، وأنشده ابن سعيد قصيدة مطلعها :

جدلى بما لقى الخيال من الكرى لا بد للضيف الملم من القِرى

وارتاح السلطان الأيوبى وهش للمطلع وللقصيدة كلها ، وحدثه ابن سعيد عن نفسه وعن كتابه (المشرق فى حلى المشرق)

---

(١) شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٠

وأحب السلطان استبقاءه ، ببلاطه قائلا :(نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك إلى ماليس عندنا ، كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا ، فأجابه : أمر مولاى إنعام وتأنيس) واستظرف الناصر حديثه فأطال فى تأنيسه قائلا على سبيل المداعبة :

ـــ إن شعراءنا ملقبون بأسماء الطيور ، وقد اخترت لك لقبا يليق بحسن صوتك وإيرادك للشعر فأن كنت ترضي به ، وإلا لم نعلم به أحدا غيرنا ! وهو البلبل ! فقال ابن سعيد :

ـــ رضى المملوك ياخوند : فتبسم السلطان وقال له أيضا يداعبه :

ـــ اختر واحدة من ثلاث: إما الضيافة التى ذكرتها فى أول شعرك ، وإما جائزة القصيدة ، وإما حق الاسم ! فأجاب ابن سعيد :

ـــ ياخوند ! المملوك مما لا يختنق بعشر لقم لأنه مغربى أكول ! فكيف بثلاث ؟ ! وكان هذا الجواب الحاضر اللطيف سببا فى إطراب الناصر ، فقال لمن حوله : هذا مغربى ظريف! ثم أتبعه من الدنانير والخلع والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف..

ولقد استطاب ابن سعيد العيش فى كنف الملك الناصر وحمايته لثلاث سنوات أوتزيد قليلا ، وائتنس بحضرته ، وسمع منه شعرا وأسمعه شعره ومدائحه فيه التى منها دالية يقول فيها :

خطرت إليه السمهرى مسددا فعانقته شوقا إلى ذلك القد

خفى وستر الليل فوقى مسبل كأنى حياء فوق وجنة مسود!

ومن المؤسف أن يكون مصير الناصر الأيوبى القتل على يد التتار وزعيمهم هولاكو ، بعد أن استفزه الغضب لهزيمته فى عين جالوت . ولم يكن للناصر فى هذه المعركة ناقة ولا جمل[1]..

بقى أن نقول كلمة عن لقاء ابن سعيد المغربى للملك المعظم توران شاه فى دمشق. فقد جاء فى نفح الطيب.. نقلا عن الأحاطة أن ابن سعيد (دخل مجلس السلطان المعظم بدمشق ، وحضر مجلس خلوته). ونقل الدكتور شوقى ضيف فى مقدمته «للمغرب» هذا الخبر قائلا : (اتجه إلى دمشق ، وتعرف بها على السلطان المعظم توران شاه وأصبح من ندمائه) ، فزاد الدكتور شوقى ضيف على المعظم قوله : توران شاه . ولكن المرحوم الدكتور

(١) لتفصيل الحديث عن الناصر ومقتله انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٣ ص ٢٤٠ ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى جـ ٥ ص ٢٩٩

زكى محمد حسن فى تقديمه الطويل للمغرب قسم مصر يثير الشك فى هذا قائلا (إن هذا كله لا يزال يحتاج إلى تحقيق دقيق، لأن الملك المعظم توران شاه لم يكن فى دمشق سنة ٦٤٧ هـ، وإنما كان نائبا عن أبيه فى حصن كيفا . . .) والحق أننا سنضطر إلى الوقوف قليلا أمام كلام الدكتور زكى حسن. فالدكتور شوقى على حق حينما جعل الذى قابله ابن سعيد هو المعظم توران شاه. ولا يمكن أن يكون «المعظم عيسى» سلطان دمشق لأنه توفى سنة ٦٢٤ هـ. وابن سعيد المغربى وصل إلى الأسكندرية سنة ٦٣٩ هـ قادما من المغرب، فلا يعقل أن يلقى المعظم عيسى بعد انتقاله إلى رحمة ربه سنة ٦٢٤ هـ. وقد ثبت أن لقاء ابن سعيد للمظم سلطان دمشق كان سنة ٦٤٧ هـ. فلا يمكن أن يكون إلا «المعظم توران شاه» الذى كان بدمشق فى ذلك الحين عائدا من حصن كيفا ليتسلم عرش مصر من والده المريض مرض الموت، الملك الصالح نجم الدين أيوب. فقد ذكر المؤرخ الثقة أبو شامة فى ذيله على «الروضتين»(١) أن الملك المعظم توران شاه جاء من حصن كيفا ودخل دمشق فى رمضان سنة ٦٤٧ هـ ونزل بقلعتها وأقام بها واستقبل أناسا كثيرين ومنهم المؤرخ أبو شامة نفسه، وأحسن إليه — كما يعترف — ثم سافر إلى مصر فى

(١) ذيل الروضتين لأبى شامة ص ١٨٣

طريقه إلى ملاقاة الصليبيين . وهناكان لقاء ابن سعيد لتوران شاه ، مما يؤكد لنا صحة ما استظهره الدكتور شوقى ضيف .

على أن هذا اللقاء مع السلطان المعظم توران شاه فى قلعة دمشق لم يكن إلا لقاء عابرا ، لأن هذا السلطان التعس لم يطل مقامه أكثر من شهر أو بعض شهر حيث عاد إلى مصر ليلقى فيها مصيره المحتوم .

٦ – شخصيات بارزة فى حياة ابن سعيد

من تمام الحديث عن صلات ابن سعيد المغربى ولقاءاته فى لمغرب والمشرق أن نفرد الحديث عن أربع شخصيات بارزة فى حياة الرجل، لقى اثنين منها فى تونس ، واثنين فى القاهرة ، وكان لهم أثر أى أثر فى مساندته ومساعدته وبسط الحماية له.

أما أولهم فهو الإمام أحمد بن يوسف التيفاشى التونسى ، وقد اشتغل بالعلم والأدب – كما يقول ابن فرحون المالكى – وعلوم الأوائل ، وقدم إلى مصر وهو صغير ، وتتلمذ على الرحالة المؤرخ عبد اللطيف البغدادى وقرأ عليه، ثم رحل إلى الشام ، وعاد إلى تونس ، ثم عاود الكرة لزيارة مصر والشام ، وقد جمع إلى الفضل والعلم الشعر الحسن والنثر الجيد . وهو ممن ازدهر بهم بلاط أبى زكريا الحفصى وولده المستنصر المشهور ..

وكان التقاء التيفاشى مع ابن سعيد فى خلال زيارة ابن سعيد الأولى لتونس وهو فى طريقه إلى الرحلة بالمشرق ، وقد سبق أن صححنا الوهم الذى وقع فيه الدكتور زكى محمد حسن، فى الفصل الخاص بموجز سيرة ابن سعيد ، فلا محل هنا لإعادة القول .

ولما أنجز ابن سعيد كتاب «المغرب فى حلى المغرب» وأطلع عليه صديقه التيفاشى ، نظم هذا شعرا يهنىء المؤلف به ، ويقول فيه :

سعد الغرب وازدهى الشرق عجبا وابتهاجا «بمغرب» ابن سعيد
طلعت شمسه من الغرب تجلى فأقامت قيامة التقييد
لم يدع للمؤرخين مقالا لا ولا للرواة بيت نشيد
إن تلاه على الحمام تغنت ما على ذا فى حسنه من مزيد

وقد ذكر ابن العديم فى تاريخه عن حلب أنه لما التقى بالتيفاشى التونسى فى القاهرة أنشده هذه الأبيات التى قالها فى تهنئة ابن سعيد بكتابه عن «المغرب»[1] . وأعقب التيفاشى هذه التهنئة لكتاب «المغرب» بتهنئة أخرى إلى ابن سعيد يقول فيها :

أثقلت ظهرى ببر لا أقوم به لو كنت أتلوه قرآنا مع السور
أهديت للغرب مجموعا بعالمه فى قاب قوسين بين السمع والبصر
كأننى الآن قد شاهدت أجمعه بكل من فيه من بدو ومن حضر
نعم ولاقيت أهل الفضل كلهم فى مدتى هذه والأعصر الأخر

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٤٧٩

إن كنت لم أرهم فى الصدر من عمرى فقد رددت على الصدر من عمرى

ولعل هذه أول تحية وأرق تهنئة استقبل بها كتاب «المغرب» منذ ظهوره إلى الوجود . .

وقد كتب ابن سعيد فى آخر كتاب « المغرب » إجازة بخطه إلى الأمام التيفاشى يقول فيها : (أجزت الشيخ القاضى الأجل أبا الفضل أحمد بن الشيخ القاضى أبى يعقوب التيفاشى أن يروى عنى مصنفى هذا، وهو « المغرب فى محاسن المغرب» ويرويه من شاء ، ثقة بفهمه، واستنامة إلى علمه ..) وكذلك أجاز روايته لابن خطلخ الأرموى الذى كان ملازما للتيفاشى . . .

وثانى الشخصيات الواضحة المعالم فى حياة ابن سعيد هو الغسانى أبو العباس أحمد بن إبراهيم ، وقد ترجم له ابن سعيد فى « القدح المعلى » وفى « رايات المبرزين » . وكان كاتب الدولة الحفصية ولسان حالها ، وكاتم سرها . وله مع ابن سعيد منادمات ومطارحات روى لنا بعضا منها حيث قال : (حضرت ليلة أنس مع كاتب ملك أفريقية أبى العباس أحمد الغسانى ، فاحتاجت الشمعة أن تقطّ فتناول قطها غلام ببنانه ، فقلت :

ورخص السَبنان تصدَّى لأن يُقطّ السراج بمثل العَنَم

فقال الغسانى :

ولم يهب النـــار فى لمسه ولا احتاج فى قطـهِ للجلم[1]

فقلت:

وما ذاك إلا لسكناه فى فؤادى على ماحوى من ضَرَم

فقال :

تَعــوَّدَ حرَّ لهيب به فليس به من أوارٍ ألم . . !

والغسانى كان شاعرا وناثرا ، إلا أنه امتاز فوق ذلك بحسن العشرة، وصفاء الفطرة . فكأنما وقع ابن سعيد منه على مُشاكله وضريبه . ولذا وصفه قائلا : (وكفاك أنى اختبرت الفضلاء من البحر المحيط إلى حضرة القاهرة ، فما رأيت أحسن ولا أفضل عشرة منه) .

وقد عقد الود مابين الرجلين منذ اللقاء الأول فى تونس ، فلما غادرها ابن سعيد قادما إلى الإسكندرية فى صحبة والده ، لم يشعر إلا برسالة توافيه بالإسكندرية من تونس ، وفيها قصيدة يقول فيها الغسانى :

---

(١) الجلم هو المقص. ولم يهب أى لم يخف ،وأصل الفعل : يهاب

إيه أبا الحَسَنَ استَمعْ شدوى كما
يُصغى الحمام إلى الحمام تَرنُّما
وأَجِلْ جفونك فى سطور لم تكن لولا تصعد زفرتى أن تفهما
وإذا لمحت فريدة منها ، فلا تَعجب لناظمها فمنك تعلّما
بالله طارحنى الحديث فإننى أهوى حديثك مفصحا أو مجمجما(١)

وأمسك بن سعيد قلمه ، ورد على الغسانى بقصيدة من البحر والقافية يقول فيها :

أطلعت فى ليل التشوق أنجما لما بعثت مسائلا ومسلما
لولا كتابك ظلت فيه حائرا حيث اتجهت رأيت جنحا مظلما
وافى وأفق حالك فأناره وأوام شوقى مؤلم فشفى الظما(٢)

أما ثالث الشخصيات التى تميزت وبرزت فى حياة ابن سعيد المغربى فهو جمال الدين بن يغمور الذى وصل إلى أن يكون نائب السلطان المصرى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مصر أولا ، وفى الشام ثانيا ، وقد جمع إلى العلم ورواية الحديث سياسة الحكم ، وشجاعة القلب، وجلال القدر ، وتدبير الرأى،

(١) اختصار القدح المعلى ص ١٩ ، والنفح جـ ١ ص ٤٨٣
(٢) اختصار القدح المعلى ص٥

وجود اليد، مما جعله موضع المديح عند شعراء عصره . وهو من مواليد الصعيد فى مصر – كما يذكر العماد الحنبلى – وتوفى سنة ٦٦٣ ﻫ .

أما رابع الشخصيات فهو كمال الدين بن العديم المؤرخ الحلبى المشهور ؛ وكان يتمتع بلقب « الوزير » ، وهو الذى أغرى ابن سعيد المغربى بالرحيل إلى حلب لمقابلة السلطان الناصر الأيوبى ملك حلب ودمشق ، وقد فصلنا حديث ذلك من قبل . ولما ترك ابن سعيد حلب والشام وعاد إلى شمالى أفريقية وتونس لم يزل دائم الحنين إلى صديقه وصفيه ابن العديم الذى قام له بحقوق الأخوة خير قيام . وكان يراسله ويذكره بأيامهما فى حلب ودمشق والنيربين[1] فيقول له مثلا :

عرِّج على حلب إن كنت ذا طلب
للعـــلم والحلم والعلياء والأدب
واقرى السلام بها من بعد لثم ثرى
أرجائها الأرجات الأفق والـطُـنُب

(١) النيربين : مكان نزه من منازه دمشق . وقد ذكره صديقنا الشاعر العلامة خير الدين الزركلى فى إحدى قصائده بديوانه . وليس صحيحا ماجاء فى (اختصار القدح المعلى) ص ٦ من أن اسمه « النيرين » .

على الوزير أبى المجـــد الذى خلقت
أخلاقُ سؤدده من عنصر الشهب
وقل له ياكـريم الأصل مافعلت
تلك العهود التى زُرَّت على الحسب ؟
هل تذكرنَّ ليالينـا التى سلفت
بالنيربين ووجهُ الأنسِ لم يغب ؟؟(١)

---

(١) لقد اضطرب محقق « اختصار القدح المعلى » ص ٦ فى اسم من قيل فيه هذا الشعر ، فذكر أنه جد ابن العديم . وهو خطأ واضح يجب التنبيه إليه

٧ — بين والد وولد

لابد لمن يؤرخ أو يترجم لابن سعيد المغربى أن يلم إلمامة خاصة بوالد هذا الرجل الذى كان ملازما لابنه فى الرحلة إلى المشرق ، ونزل معه الأسكندرية ، وتوفى بها بعد وصوله إليها بعام واحد فترك ابنه منفردا يعانى الوحدة فى خضم الحياة التى كانت رفيقة به حانية عليه . . .

وللوالد موسى بن سعيد فضل أى فضل فى تعليم ولده وتثقيفه وتنمية المواهب الشعرية والأدبية الكامنة فيه ، فكثيرا ما نبهه إلى قيمة الكتب والمطالعة ، وكثيرا ما نقد شعر ولده وقوّمه له أو أثنى عليه ، وكثيرا ما نصحه ووضع له دستور عمل ناجح فى الحياة، كما فعل فى قصيدته الكافية المشهورة التى كتبها إليه من الأسكندرية بعد أن غادرها الابن إلى القاهرة . . .

ولقد جاء فى «اختصار القدح المعلى » أن ابن سعيد سافر مع والده — وهما بالأندلس — فى البرية التى بين وادى نهر المنصورة ولورقة ، وهى مجرّ العوالى، ومجرى السوابق لغارات النصارى

من الأسبان المنتقضين على حدود الأندلس ، وطالما شهدت مواقع الصراع بين العرب والفرنجة المغيرين . فقال الوالد بيتا من الشعر من نظمه وسأل ولده أن يجيزه ويتمم الشعر . والبيت هو :

ومجهلة معروفة بتوحش ... يصير بها قلب الشجاع جبانا

فقال ابن سعيد مجيزا على التو :

ترى الآل فيها خافقا متعطشا ... يمد إلى لفح الهجير لسانا!
لبست بها شمس الظهيرة حلةً ... مذهَّبةً حيث الهجيرُ كسانا
وقد ثار من وقع السنابك قسطل ... تخال لتلك النار منه دخانا
ولا سِمْع[1] إلا وهو سام مذلل ... يراقب أن يلقى الحمام عيانا

فقال له أبوه : هذا طراز من الشعر يعجز عنه أبوكَ ! وأعجب ما فى الشأن نظمه فى هذا المكان ! ويكنُّ ابن سعيد لوالده من التقدير والإجلال ما يبدو فيما كتبه عنه ، فقد ترجم له فى « المغرب » قائلا : (لولا أنه والدى لأطنبت فى ذكره ، ووفيته حق قدره . وله فى هذا الكتاب الحظ الأوفر . وكان

(١) السمع بكسر السين = الذئب . وسام أى مشرف ومتطلع. وسنابك الخيل = أطراف حوافرها . والقسطل = الغبار. والآل = السراب.

أشغفهم — يعنى بنى سعيد — بالتاريخ ، وأعلمهم به ، وجال كثيرا إلى أن انتهى به العمر بالأسكندرية) [١]

ولقد كان والد المترجم له مغرما بالمطالعة وتعقب الكتب فى مظانها حتى ولو كانت بعيدة . وبلغ من اهتمامه بالحصول على الكتاب أنه فرح به أكثر من منصب الولاية على « الجزيرة الخضراء » الذى عرضه عليه محمد بن هود . فقد بلغه أن عند شخص من بيت « نباهة » كراريس من شعر شعرائها وأخبار رؤسائها ، فأرسل إليه راغبا فى استعارتها ليقرأها ، فأبى الشخص وحلف يمينا أن لا تخرج الكراريس من منزله ! وقال إن كانت لموسى ابن سعيد حاجة إليها فليأت على رأسه ! ! وكان هذا الشخص جاهلا . فلما سمع موسى ذلك أغرق فى الضحك ، وقال لابنه المترجم له : سر معى إليه ! فأنف الابن وقال : ومن يكون هذا حتى نمشى إليه على هذه الصورة ؟ ! فأجاب الأب المحب للعلم : إنى لا أمشى إليه ، ولكن أمشى للفضلاء ، الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم ! أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين فى موضع أنفت أن أمشى إليهم ؟ قال الابن : لا ! قال الأب : فإن الأثر ينوب عن العين . ومضى الوالد وابنه إلى صاحب الكراريس

(١) نقل « المقرى » هذه الترجمة باختلاف فيما بين أيدينا من طبعات نفح الطيب

وأخذ منها ما أراد من الفوائد ، ثم شكره قائلا : هذه فائدة لم أجدها عند غيرك .

هذا فهم سليم وتقدير مستقيم لقيمة الكتب والانتفاع بها والجد فى طلبها . ولم يفت ابن سعيد أن يبرز هذه الفضيلة فى أبيه، فقال وقد نقله عنه المقرى(١): (ومما شاهدت من عجائبه أنه عاش سبعا وستين سنة ، ولم أره يوما تخلى عن مطالعة كتاب أو كتب ما يخلده، حتى أن أيام الأعياد لا يخليها من ذلك) .

فانظر إلى أى حد بلغ ولوع والد ابن سعيد بالمطالعة والكتب، فهو لا يريح نفسه حتى فى أيام الأعياد من مطالعتها . ويقص علينا الابن حكاية له مع والده فى هذا الشأن ، فيقول: (ولقد دخلت عليه فى يوم عيد ، وهو فى جهد عظيم من الكتب . فقلت له : يا سيدى ! أفى هذا اليوم لا تستريح ؟ فنظر إلى كالمغضب ، وقال: أظنك لا تفلح أبداً ! أترى الراحة فى غير هذا ؟ ! والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها . .)(٢)

ولقد تمنى والد ابن سعيد أن يطيل الله عمره حتى يتم كتاب

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٤٨٤
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٨٤

«المغرب» الذى اشترك فى تأليفه جماعة من بنى سعيد بالموارثة .. كما سيأتى القول فى موضعه . ويروى ابن سعيد شعرا نظمه والده فى المطالعة والكتابة والتقييد ، يحسن الرجوع إليه فى موضعه من « المغرب » و « نفح الطيب »[١] .

ولعل أجمل ما يروى فى معرض العلاقات بين ابن سعيد المغربى ووالده هو تلك الوصية الشعرية والرسالة النثرية التى كتبها الرجل إلى ابنه حينما نهض الابن من الأسكندرية وحيدا إلى القاهرة ، تاركا أباه فى الأسكندرية ، فهى من أجمل رسائل الآباء إلى الأبناء فى الأدب العربى ، وقد أودعها الأب خلاصة تجاربه فى الحياة، لتكون دليل سلوك مستقيم لولده الذى كانت سنه فى ذلك الحين تسعة وعشرين عاماً .

ومن بعض أبيات هذه الوصاة الشعرية الفريدة فى ديوان العرب قول الوالد لولده :

أودِعكَ الرحمنَ فى غربتكْ مرتقبا رحماه فى أوبتك
وما اختيارى كان طوع النوى لكننى أجرى على بغيتك
فلا تَطِل حبل النوى إننى والله أشتاق إلى طلعتك
واختصر التوديعَ أخذاً فما لى ناظر يَقْوىَ على فرقتك

(١) المغرب : قسم الأندلس جـ ٢ ص ١٧٠ ونفح الطيب جـ ١ ٤٨٤

واجعل وصاتى نصب عينٍ ولا تبرَحْ مدى الأيام من فكرتك

ولم يدع الوالد فرصة لتوجيه ولده فى الحياة وتبصيره بشئونها وتعليمه فن التعامل مع الناس دون أن ينتهزها. فقد كانا يتحدثان مرة حول اختلاف مذاهب الناس وميولهم، وأنهم لا يسلِّمون لأحد فى اختياره ، وأن من الصعب إرضاء كل مزاج ،وموافقة كل هوى . فقال الأب لابنه : متى أردت أن يسلم لك أحد فى هذا التأليف — أعنى كتاب المغرب — ولا يعترض ، أتعبت نفسك باطلا ،وطلبت غاية لا تدرك. ولم يكتف الوالد بهذه النصيحة المجردة بل أردفها بحكاية للابن توضح المراد ، وتبين المقصود ، قائلا : وأنا أضرب لك مثلا : يحكى أن رجلا من عقلاء الناس كان له ولد ، فقال له يوماً : يا أبى! ما للناس ينتقدون عليك أشياء وأنت عاقل ولو سعيت فى مجانبتها سلمت من نقدهم؟ فقال أبوه : يابنى: إنك غر لم تجرب الأمور، وإن رضا الناس غاية لا تدرك. وأنا أوقفك على حقيقة ذلك . وكان عنده حمار ، فقال له : اركب هذا الحمار وأنا أتبعك ماشياً، فبينما هو كذلك إذ قال رجل: انظر : ما أقل أدب هذا الغلام ! يركب ويمشى أبوه ! وانظر ما أشد تخلف والده لكونه يتركه لهذا ! فقال له : انزل أركب أنا وامش أنت خلفى ! فقال شخص آخر : انظر هذا الشخص ! ما أقل شفقته ! ركب وترك ابنه يمشى ! فقال له : اركب معى ، فقال شخص : أشقاهما الله تعالى : انظر كيف ركبا على الحمار وكان

واحد منهما كفاية ! فقال له : انزل بنا . . ومشيا وليس على الحمار راكب . . . فقال شخص: لا خفف الله عنهما! انظر كيف تركا الحمار فارغا وجعلا يمشيان خلفه ! فقال : يا بنى ! سمعت كلامهم وعلمت أن أحدا لا يسلم من اعتراض الناس على أى حالة كان اعتراضهم . .

وهكذا كانت العلاقة بين ابن سعيد ووالده ؛ فهما خير مثال جمع بين الأبوة الرحيمة ، والبنوة الكريمة .

٨ ــ جوانب من الخلق

نستطيع أن نصور بعض الجوانب الخلقية عند ابن سعيد المغربى من بعض ما وصل إلينا من أخباره وأشعاره . فإن سلوكه الذى يعبر عنه شعره ، والذى جاء عفوا غير متكلف ، يظهر لنا من خلال بعض الأشعار والأخبار المنتثرة هنا وهناك .

وأول ما يبدو لنا ابن سعيد رجلا ظريفا خفيف الظل مرح الروح لا تجلله غمامة من الثقل والبرود والتكلف. ولأمر ما أحبه الملوك والأمراء وتنافسوا فى اجتذابه إليهم ، حتى لقد عرض عليه الملك الناصر صاحب حلب أن يعينه بما عنده من الخزائن ويوصله إلى ما ليس عنده من خزائن الموصل وبغداد ليستبقيه قريباً منه . ويبدو لنا ظرف ابن سعيد وخفة ظله فى ذلك الحوار الذى دار بينه وبين الملك الناصر وأثبتناه فيما سبق من الصفحات. ولا يدلنا لقاؤه مع الملك الناصر وقصيدته له على خفة الروح وحسب ، بل يدلنا على مبلغ ما عند صاحبنا من لباقة وكياسة وتلطف فى الطلب . فإن مطلع قصيدته للملك الناصر وهو :

جد لى بما ألقى الخيال من الكرى لابد للضيف الملم من القِرى

قد لفت إليه نظر الوزير العالم ابن العديم الذى كان رفيقــــه

فى وفوده على ملك حلب . فقد قال ابن العديم حين سمع هذا المطلع: هذا رجل عارف ورَّى بمقصوده من أول كلمة ..

ويتصل بظرف ابن سعيد ظاهرة أخرى تبدو فيما سجل من أشعار ،أو روى هو أو رُوى عنه من أخبار . فلسنا نراه رجلا متزمتاً متكلفاً الوقار ، ولكنه أديب يأخذ من أسباب اللهو والطرب بأوفى نصيب . فهو عاكف على مجالس الأنس،ومجامع الشراب ، وهو رجل يقتنص ساعات السرور ويحرص عليها ، ولا يدع للعزلة الكئيبة سبيلا إلى نفسه .

ولقد قضى فى الأندلس وخاصة أشبيلية أيام شبابه ، وهو هناك قد أرخى للنفس عنانها بين منازه ورياض وأدواح وأنهار وقصور . وهو فى هذا يقول : (. . وكان مهوى هوانا ، ومجمع لذاتنا ومنانا ، بمرج الفضة والعروس، والسلطانية وشنتبوس ، لا نكاد نخلو من التفرج فى تلك الأدواح والقصور ، وظل الشباب ممدود وهوى النفس هنالك مقصور ،ومعنا من الوجوه الفتانة ما يعين القرائح ،ويأتى من المحاسن والبدائع بكل غاد[1] ورائح . . .)

ونراه مثلا يدعو صديقه ورفيق صباه الشاعر ابن سهل الأندلسى إلى متنزه « مرج الفضة » فيقول :

---

(١) اختصار القدح المعلى ص ٧٣

هلم أبا إسحاق نحو نزاهة كمثل التي عودت بالدوح والنهر
ونبدى لزهر الروض والورد وجنة
وثغرفم أنــدى من الورد والزهر
وإن عبتمونا فى التصابى جهالة
فعصر الشباب الغض يغنى عن العذر . .

ويستجيب له ابن سهل بالشعر الرقيق وباللقاء فى هذا المتنزه النضير . . ويركب ابن سعيد مع الشاعر ابن سهل فى نهر أشبيلية فيقيمان (نزهة بالعروس، حيث مدار الأنس وإدارة الكئوس .) ويدعو ابن سعيد إلى مباكرة اللهو ومبادرة الطرب ، فيقول وهو بغرناطة :

باكر اللهو ومن شاء عتب لا يلذ العيش إلا بالطرب

ويقول من أبيات خمرية :

رقّ الأصيل فواصل الأقداحا واشرب إلى وقت الصباح صباحا
وانظر لشمس الأفق طائرة وقد ألقت على صفح الخليج جناحا

ويقول أيضاً فى هذا المجال :

بعيشك ساعدنى على حثّ كاسها إذا ما بدا للصبح بَتر المواعد[1]
وشقّ عمود الفجر ثوب ظلامه كما شق ثوبا أزرقاً صدر ناهد . . ! !

ويمثل لنا ابن سعيد الرجل الاجتماعى الكيس بما تحمله

(١) بتر المواعد أى قطع المواعيد بعد انجلاء النهار وانشقاق عمود الفجر

الكياسة من معان، فهو لا يجابه أحداً بما يكرهه، ولا يواجه الناس بعيوبهم ، وإنما هو مجامل يساير الناس ويأخذهم على قدر عقولهم. كان الوزير الكاتب الأندلسى الشاعر أبو جعفر بن طلحة صديقا لأبيه ، ولكنه كان مغرورا كثير الاعتداد بنفسه وبشعره ، وكان ابن سعيد « الابن » يعرف منه هذا النقص ، فما حاول يوما أن يجبهه بما لا يحب ، أو أن يؤذى شعوره بتنقص شعره أو قدره فى نفسه ... اجتمع ابن طلحة يوما بابن سعيد فى مجلس فيه بعض الناس ، فأخذ ابن طلحة يزهى بشعره ويقول : تقيمون القيامة بحبيب، والبحترى ، والمتنبى وفى عصركم من يهتدى إلى ما لم يهتدوا إليه ؟ وتصدى لابن طلحة رجل جرىء فى المجلس وجبهه بما لا يود ، فأخذ ابن طلحة يروى قطعة من شعره ، فاستسخفها القوم وزادوا غيظه ، ولكن ابن سعيد قال له : ياسيدى ! هذا والله السحر الحلال ! وما سمعت من شعراء عصرنا مثله ! فوالله إلا مازدتنا من هذا النمط ! ومازال الرجل يزيد فى الإنشاد ، والحاضرون يزيدون فى الانتقاص والانتقاد ، وابن سعيد يزيد فى المجاملة ، فيقول له تارة : ما على هذا مزيد فى الإحسان ! ويقول أخرى :

زادك الله إحسانا ! ويقول ثالثة : كل ما يكرر ويطول فإنه مملول . . إلا ما أوردته آنفا فأنه كنسيم الحياة ما إن يمل !

ويروى لنا ابن سعيد قصة مادار بينه وبين ابن طلحة فى أسلوب أدبى طريف[1] .

ولعل ابن سعيد غلبت عليه مداراة الناس فيما كان يأخذ ويدع من أمورهم . فهو يجامل الناس ويداريهم اتقاء لشرهم . وكثيرا ماجامل ابن عمه الرئيس أبا عبد الله بن الحسين الذى كان ذا نفوذ عظيم فى بلاط تونس اتقاء لما قد يجيئه إليه من شر ، أو تفادياً لزيادة حفيظته . وكثيراً ماكان يعتذر إليه وهو برىء، وكثيراً ماكانت ترمى به الأيام فى وجوه أهل الشر من الأدباء ورجال الحكم فيتجنب ملاقاتهم . ويحكى لنا هو مافعله مع « كثير الأديب » الأندلسى ، فكان كثيراً ما يلقاه فى أشبيلية ومالقة ويتجنب مجالسته لأنها تجلب مشارّته لحدة كانت فيه ..

ويتجلى الإنصاف فى الحكم على الناس عند ابن سعيد . فهو لايتأثر ولا ينفعل بعاطفة أو اعتبارات خاصة ، ولكنه يصدر الحكم عن روية وأناة وتجربة مع حسن التقدير وعدم الميل . فقد وصف ابن عمه الرئيس أبا عبد الله بأكرم مايوصف به ، على الرغم مما أساء إليه وإلى والده عند بنى حفص أمراء تونس،

---

(١) اختصار القدح المعلى ص ١١٤

وأحكامه على عبد الواحد الواعظ الأعمى الأشبيلى ، وأبى الحامد القرطبى ، وعلى بن أحمد القادسى صادقة متصفة(١)

وهو على ما كان فيه من صدق وصراحة فى الحكم على الناس كان يعرف الفضل لأصحابه ، يعترف به لهم ، ويذكره فى عداد مآثرهم ، ولا ينكره فى معرض من المعارض ، بل يسجله ويعالن به . يتجلى هذا فى موقفه من أبى الحسن حازم بن حازم القرطاجنى ، فهو يصرح بأنه ممن استفاد من آدابهم ، وفى موقفه من البياسى الذى يقول عنه : (وفى جميع ذلك استفدت من فنون آدابه مالا أنسى به ذكره ، ولا أتنقص — متى أخذته الألسن من جهة الأمور الدينية — قدره) ، وفى موقفه من ابن عمر الأشبيلى الذى يقول فيه : (لقيته بمراكش وقد زار والدى فظفرت منه ببعض الفوائد) . ولم ينس صاحبنا لواحد من أصحابه فضله ، وظل يتغنى بمروءة صديقه أبى الحسين الجزار الشاعر المصرى فى أكثر من موضع ، ويقول عنه : (ألفيت فيه من التعصُّب والتأنيس والبر بى ماصيرنى كأنى فى بلدى بين أهلى . .)

---

(٢) اختصار القدح المعلى ص ١١٠ — ٢١٢ — ٢١٣

وهذا العرفان المحض بالجميل والفضل هو قرين لصفة الوفاء المحض عند ابن سعيد . فهو وفىٌّ لوطنه ومرابعه وأهله وأصحابه، وهو دائم الحنين إلى وطنه الأصلى : الأندلس ، وإلى كل بقعة نزل فيها من أرض الوطن العربى الكبير . ولقد بلغ من ألفته ووفائه وحنينه لكل مودَّع من الأرض،وسالف من العهد، أنه كان بمصر فى المحل الأكرم ، ولكن ذلك لم ينسه عهده المدبر بالأندلس .

ويقول فى ذلك : (ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتنى فيهما وحشة ، وأثار تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التى قطعت بها العيش غضاً خصيباً ، وصحبت بها الزمان غلاما ، ولبست الشباب برداً قشيباً .

وفى حنينه للأندلس يقول من قصيدة مؤثرة :

هذه مصر فأين المغرب ؟ مذ نأى عنى فعينى تسكب
فارقته النفس جهلا ، إنما يعرف الشىء إذا مايذهب
أين حمص[1] أين أيامى بها ؟ بعدها لم ألق شيئاً يعجب
كم بعيش لى بها من لذة حيث للنهر خرير مطرب!

(١) حمص مدينة من مدن الأندلس، وقد سميت بهذا تذكاراً لحمص الشامية.

ولما رحل عن غرناطة إلى قرمونة بالأندلس حن إليها ونظم فى ذلك قصيدة بائية مطربة[١]. وحينما غادر الجزيرة الخضراء إلى مالقة بالأندلس حن إليها بقصيدة حائية مؤثرة . وهو يحن إلى كل أيام له سلفت فى بلهنية من العيش ، فيقول عن ذكرياته مع الفقيه أبى العباس بن بلال وولده : « ولقد مرت لى معه ومع ولده المذكور ، أيام لايزال يتمثلها الضمير فتميد عليها أغصانه ... »

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٧

الفصل الثالث

جوانب ابن سعيد المغربى

١ — مؤرخ ومنهجه

يعد كتاب « المغرب » بقسميه الأندلسى والمصرى مصدراً هاماً من مصادرنا التاريخية عن هذه البلاد، والحق أن كتباً كثيرة قد ألفت فى تاريخ مصر والأندلس، ولكن أكثرها مفقود ، فاستطاع ابن سعيد ومشاركوه فى الكتاب من قبله أن ينقلوا لنا نصوصاً كثيرة من هذه الكتب الضائعة أو التى لم تكن معروفة، وبهذا استطعنا اليوم أن نقع على كثير من النصوص فى تلك الكتب المفقودة ، وأن نستعين بها على جلاء التاريخ واستيضاحه، فلولا ما نقله ابن سعيد عن هذه النصوص لضاعت بضياع أصولها، ولخفى علينا كثير من الحقائق التى يعود الفضل فى معرفتنا إياها لتدوين كتاب « المغرب » لها .

والحق أن كثيراً من معارفنا عن دولتى ابن طولون والإخشيد

يرجع إلى ما نقله ابن سعيد عنهما فى كتابه من كتب المؤرخ ابن زولاق عن سيرة محمد بن طغج الإخشيد ، وكتاب أحمد بن يوسف ابن الداية عن سيرة أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية . ومن الكتب التى نقل منها كتاب المغرب ووعينا كثيراً من نصوصها كتاب « تاريخ أفريقية والمغرب » للرقيق القيروانى الذى عاش فى القرن الرابع ووفد على الحاكم بأمر الله فى مصر رسولا إليه من ملك أفريقية والمغرب ، وكتاب «تاريخ مصر » لابن يونس الذى كان من أعلام المحدثين فى مصر فى القرن الرابع أيضاً ، وكتاب « أخبار مصر » للمسبحى الذى كان من رجال الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وكتاب «تاريخ أربل» لابن المستوفى الأربلى الذى عاش ثلثاً من القرن السابع ، وكتاب « تاريخ مصر» لمحمد بن سعد القرطى الذى كان معاصراً للخليفة الفاطمى العاضد فى القرن السادس الهجرى .

ومزية ابن سعيد المؤرخ أنه لم يكن ينقل عن الكتب ثم يخفى منقولاته كأنما هو كلامه الخاص ، وإنما كان ينصف الذين ينقل عنهم ، فيذكر أسماءهم ، ويسجل نصوصهم بعباراتهم حتى لا يختلط على القارىء الأمر . فهو جامع لنصوص تاريخية كثيرة ، ولكنه أمين فى نقلها وفى نسبتها إلى أصحابها . ومن هنا

كان لمؤلفاته — وخاصة المغرب — قيمة تاريخية عظيمة لما احتوت عليه من نصوص عن كتب مفقودة أو مجهولة أو لم تقع عليها الأيدى .

وتصادفنا صفة المؤرخ الأمين فى نقول ابن سعيد فى كثير من المواضع . فهو يعترف مثلا فى ترجمته للقرطى المؤرخ المصرى بأنه وقف على كتابه فى تاريخ مصر عند النجم الريحانى المعتنى باقتناء الكتب ، وقيد منه ما أودعه فى كتاب « المغرب » . وبلغ من أمانة ابن سعيد أنه كان يذكر المنقول عنه إذا عرفه ، فإذا لم يعرفه أو أنسيه قال : « ووقعت على بعض الكراريس فى تاريخ مصر » وكان فى استطاعة ابن سعيد أن يفعل كما يفعل كثير من لصوص العلم فينقل ولا يشير إلى أنه نقل ، بل يذكر الكلام كأنه من عنده ، ولكن الأمانة عنده بلغت حداً واضحاً ، فلا تخلو صفحة من كتاب « المغرب » من ذكر العلماء الذين أخذ منهم ، أو الكتب التى نقل عنها .

وتلفت ظاهرة النقل هذه نظر القارىء لكتب ابن سعيد وخاصة المغرب ، فإذا ترك النقل انتقل إلى الرواية الشفوية ، وهى عمل له قيمته فى توثيق الأخبار . فيقول مثلا : أخبرنى فلان — كما فعل فى روايته عن المؤرخ ابن عبد العظيم معاصره

وصاحب تاريخ مصر[١] ، أو كما فعل مع العماد السلماسى فيقول أخبرنى العماد السلماسى . وأحياناً يروى بصيغة البناء للمجهول فيقول : أخبرت — بضم الهمزة ، أو « ذكر لى[٢] » .

وكثيراً ما كان والد ابن سعيد المغربى أحد الذين يروى الابن عنهم ، فيقول مثلا : قال والدى ، أو أخبرنى والدى ، وأحياناً لا يذكر لفظ (والدى) بل يقول : أخبرنى « أبو عمران ابن سعيد[٣] » وهو اسم والده أو كنيته على الصحيح ، وأحياناً ينقل عبارة قائلا إنها « من تقييد سلفه[٤] » والسلف هنا هم أبوه ومن سبقه فى تأليف « المغرب » من آبائه .

وكثيراً ما كان يجتمع ابن سعيد بالرجال فيسألهم عن أخبارهم وآثارهم وأشعارهم . فيجتمع مثلا بالقسطلانى فى داره بالفسطاط ، ويسأله أن ينشده شيئاً من شعره[٥] ، وكذلك يفعل مع الشاعر المصرى ابن مهلهل . وهو لا يسأل المترجم لهم مباشرة ، بل يسأل الناس عنهم ، ويتلقى أخبارهم من أفواه غيرهم ؛ كما فعل مع الشاعر

(١) المغرب : قسم مصر ص ٢٥٧

(٢) المغرب : قسم الأندلس ج ١ ص ١٣٥

(٣) اختصار القدح المعلى ص ٦٠

(٤) المغرب ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٥) المغرب : قسم مصر ص ٢٦٩

المصرى ابن العصار من شعراء الملك الكامل الأيوبى[١] .

وإذا لم يسعف النص المنقول ابن سعيد بالنتيجة ، فإنه يلجأ إلى الاستنتاج والاستظهار بغلبة القرينة . كما فعل فى ترجمته لأبى الفتح ابن البينى ، فإنه نقل نصاً عن القرطى المؤرخ ثم عقب عليه بقوله : « ودلت قرينة الكلام أنه من شعراء الفسطاط فى المائة الرابعة[٢] » فإذا لم تسعفه القرينة الغالبة لجأ إلى « غلبة الظن » كما فعل مع على بن يونس المنجم المصرى ، فقد قال عنه : « يغلب على ظنى أنه من شعراء المائة الرابعة[٣] » . وليست « غلبة الظن » هنا مرتجلة أو عفو الخاطر ، ولكنها مؤسسة على شواهد وقرائن يجمعها ابن سعيد من قراءاته ومن روح النص ومن أسلوب الذى يترجم له .

ولا يقنع ابن سعيد بأدنى مطلوب من المعرفة ، بل نراه يبحث ويفتش عمن يترجم له أو يؤرخ . فإذا عرف أن بين « الرسى » وبين تميم بن المعز مجاوبات ومطارحات شعرية لا يكتفى بهذا ، بل يطلب ديوان تميم ويطلع بنفسه على شعره مع الرسى[٤] . فهو مؤرخ يحاول الوصول دائماً إلى المعرفة بالبحث والتنقيب .

وإذا لم يسعفه الحظ بشراء كتاب للبحث فإنه لا يتردد فى

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٧٤

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٢

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧٣

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٠

استعارته ممن هو عنده ، وقد أخذ هذه الفضيلة عن والده الذى كان ولوعا بالمطالعة كما ذكرنا قبلا ، وكثيراً ما كان يستعير ابن سعيد فى مصر كتب المراجع من النجم الريحانى الذى كان مشهوراً بجمع دفاتر الأدب(١) .

وقد يروى لابن سعيد الشعر منسوباً إلى شاعر فيحققه ، وقد يروى أمامه بيت من الشعر منسوبا لشاعر ثم يروى منسوباً لشاعر آخر ، فلا يقطع فى القضية برأى مادام غير واثق من صاحب الشعر ، كما صنع فى البيت الذى نسب إلى «ابن رشدين» وإلى « العجلى » فى وصف غلام يحمل حبة من الكمثرى(٢) .

ولابن سعيد فى الرواية الشفوية طريقة محببة ، فقد بلغ من أمانته فى ذلك أنه يروى النكتة اللاذعة حتى ولو مست أحد أقاربه ، كما فى نكتة ابن قادم القرطبي مع عمه(٣) .

أما اهتمام ابن سعيد بذكر الوفيات فى تاريخه فقد بلغ مبلغاً لا يجوز إغفاله ، فهو فى تسجيله لوفيات الأعيان يعتمد على ما

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٠ (٢) المصدر نفسه ص ٢٥٦

(٣) المغرب : قسم الأندلس حـ ١ ص ١٤١

يعرفه أوما يبلغه من أفواه الرجال ، كما فعل فى ترجمته للطريانى ، فقال : « وبلغنى أنه مات سنة تسع وثلاثين وستمائة[١] » أو ترجمته للقلعى[٢] ، أو يذكر سنة الوفاة غير معينة كما فى ترجمته للعثمانى حيث يقول: «وبلغتنى فى أثر ذلك وفاته من غير تعيين[٣].

(١) اختصار القدح المعلى ص ٢٠٢

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠١ (٣) المصدر نفسه ص ١٩٦

٢ — القاهرة .. بريشة ابن سعيد

على الرغم من الصور الطريفة للقاهرة والفسطاط ومصر التى نقلها ابن سعيد فى « المغرب » عمن سبقه من المؤرخين ، فإنه هو نفسه قد صور لنا مصر بقلمه الطريف صوراً مختلفة ، كما صور لنا نواحى من المجتمع المصرى والقاهرى فى عهده . وقد أسرف ابن سعيد فى نقد المجتمع القاهرى إلى حد جعل المؤرخ المقريزى يرميه بالتحامل . وقد ملأت أخبار مصر سمع ابن سعيد مما قرأه عنها من الكتب، وما تلقاه من أفواه الحجاج المغاربة الذين لم يكن ينقطع سيلهم كل عام . وكان يتلقى هذه الأخبار والروايات — طبعا — بكثير من التحرز والتحفظ « لقلة اتفاق الأغراض ، وتشتت الأهواء »[1] . ولم يطمئن بالطبع إلا حين شاهد مصر بعينى رسها على حقيقتها ، بلا تزيد ولا نقصان .

ودخل ابن سعيد القاهرة ، وأقام فيها حيناً من الزمن ، ثم تشوف إلى معاينة الفسطاط ، وركب النيل ، ووصف المراكب فيه ، وركب الحمير فى مصر على تأفف منه وأنفة ! فلم يكن

---

(١) المغرب قسم مصر ص ٥ ، ونفح الطيب

مألوفاً عنده بالأندلس والمغرب ركوب الحمير للعلية من القوم . ولقى ابن سعيد فى مصر عنتاً من ظاهرتين فيها ضيقتا عليه أنفاسه؛ وهما كثرة الحمير فى المواصلات كثرة ظاهرة ، وكثرة الغبار الناعم كثرة لم يعهدها فى بلد قبل ... ولم يفت ابن سعيد أن يسجل هذه الصورة بشعره الظريف حيث قال:

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمار ، وكحل الغبار
وخلفى مكار[١] يفوت الريا ح لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه: مهلا! فلا يرعوى إلى أن سجدت سجود العثار !
وقد مد فوقى رواق الثرى وألحد فيه ضياء النهار..[٢] !

فتصور كيف بلغ الغبار حداً دفن فيه ضوء النهار ! وقد ذكرنا فى الفصل الخاص بالحياة الاجتماعية بعض الصور التى رآها ابن سعيد فى القاهرة ومصر ، فلا محل لإعادتها هنا .

ولعل الصورة التى تنعقد الآن فى أذهان الأجانب عن مصر وكثرة التماسيح فى نهرها ، والجمال فى شوارعها، قد انعقد بعضها

(١) المكارى هو الحمار الذى يسوق الحمار .
(٢) هذه صورة تخيلية استعارية جميلة لاختفاء بياض النهار فى سواد الغبار المثار من أرجل الدواب

فى ذهن ابن سعيد . فقد كان يخشى تماسيح النيل ، ويتحرق شوقا إلى نهر حمص بالأندلس حيث لا تزعجه سبحات التماسيح(١)

والحق أن ابن سعيد قد أنس بالفسطاط أكثر من أنسه بالقاهرة ، فقد ألح عليه بعض أصحابه أن يعود من الفسطاط إلى القاهرة ، فأبى قائلا فى بيتين لاذعين :

يقولون سافر إلى القاهـــرة   ومالى بها راحة ظاهرة

زحام وضيق وكرب وما   تثير بها أرجل سائرة !!

على أن عين السخط من ابن سعيد لم تكن مسلطة على القاهرة جملة ؛ فقد أعجب بأشياء ومناظر فيها مثل « بركة الفيل » التى كانت مملوءة بالماء فى عهده ، وكانت من مباهج القاهرة ومنازهها الجميلة ؛ فقد نظر إليها يوما وقد قابلتها الشمس بالغدوة فقال :

انظر إلى بركة الفيل التى نحرت   لها الغزالة نحراً من مطالعها

وخلِّ طرفك مجنونا ببهجتها   يهيم وجداً وحباً فى بدائعها

ويظهر أن ابن سعيد كان مغرماً بمجامع المياه ومسطحاتها ، من أمثال البرك والغدران ، فإنه لم يكتف بالأعجاب ببركة الفيل

(١) انظر لذلك أبياته فى نيل مصر : نفح الطيب ج ١ ص ٤٦٨

ووصفها شعرا ، بل أعجب كذلك ببركة الحبش — فى ظاهر الفسطاط ، ووصفها شعراً يقول فيه : —

يابركة الحبش التى يومى بها طول الزمان مبارك وسعيد
حتى كأنك فى البسيطة جنة وكأن دهرى كله بك عيد

ولاحظ ابن سعيد أن القرافة بمصر يسكنها الناس — وخاصة الأعيان — ويجتمعون فيها ويسمرون بجانب قبور الموتى ! فلم تفته هذه المناقضة الطريفة فقال فيها شعرا [١]

إن القرافة قدحوت ضدين من دنيا وأخرى فهى نعم المنزل !
يغشى الخليع بها السماع مواصلا ويطوف حول قبورها المتبتل
كم ليلة ينتابها .. ومدامنا لحن يكاد يذوب منه الجندل
والبدر قد ملأ البسيطة نوره فكأنما قد فاض فيها[٢] جدول
وبدا يضاحك أوجها حاكينه لما تكامل وجهه المتهلل

---

(١) المغرب فى حلى المغرب : قسم مصر ص ١٠ ، والخطط المقريزية ج ٤ ص ٣١٩ .

(٢) البيت فى خطط المقريزى هكذا :

والبدر قد ملأ البسيطة نوره فكأنما قد فاض منه جدول

وفى هذه المفارقة العجيبة ، والظاهرة الغريبة فى «القرافة» المصرية التى يلتقى فيها الأحباب للسمر يقول شافع بن على :

تعجبت من أمر القرافة إذ غدت
على وحشة الموتى لها قلبنا يصبو
فألفيتها مأوى الأحبة كلهم
ومستوطن الأحباب يصبو له القلب

٣ – كاتب السير ومترجم الرجال

لكتب ابن سعيد المغربى قيمة كبيرة فى تراجم الرجال فى عصره وفى العصور السابقة ، سواء أكانوا من أهل المغرب أم المشرق . وتتجلى هذه القيمة على أهميتها وحقيقتها فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » الذى يزدحم بتراجم كثيرة قاربت الخمسين وستمائة ترجمة . ولم يكتف ابن سعيد بالترجمة المجردة للرجال، بل كثيرا ما كان يوشيها بأشعارهم على سبيل النماذج الدالة ، حتى وهو يترجم لنفسه فى المغرب ، لم يفته أن ينقل لنا بعض أسفاره فى المدح والوصف والخمريات والغزل والنسيب.

ولا ندرى ماذا كان الموقف لو لم ينقل إلينا ابن سعيد هذا الحشد من التراجم التى لم تصل إلينا إلا عن كتابه ، لأنه نقل عن مصادر ضاع أكثرها أو ظل مجهولا . والحق أن كتاب «المغرب» يمدنا بطائفة كبيرة جدا من تراجم الرجال الذين ما كنا نطمع فى الوصول إليهم لولا كتابه . ولا شك أن معلوماتنا عن الشعر الأندلسى ، والشعر المصرى قد ألقى عليها كثير من الضوء بعد أن ظهر « المغرب » إلى الوجود مطبوعا ومحققا. فأن شعراء كثيرين

قد أضيفت أسماؤهم إلى ما كنا نعرفه من الشعراء فيما بين أيدينا من كتب ، ويستطيع قارىء « المغرب » أن يلحظ هذا بأيسر نظرة . فليس من المبالغة فى القول أن نقول إن ابن سعيد قد زودنا بزاد كبير جديد من تراجم الرجال الذين كانوا مجهولين لدينا كل الجهل ، بل لم تطرق أسماؤهم أسماعنا من قبل . فالذين كتبوا فى الشعر المصرى منذ الفتح العربى حتى القرن السابع سيصححون آراءهم ويطعمونها بالجديد بعد ظهور « المغرب » مطبوعا لأول مرة ، وكذلك سيفعل الذين يهتمون بالأدب الأندلسى .

وقد نقل لنا ابن سعيد تراجم كثيرة عن كتاب « جنان الجنان ، ورياض الأذهان » للرشيد بن الزبير المصرى المؤرخ الأديب فى القرن السادس ، وهو كتاب مفقود حفظ لنا ابن سعيد كثيرا من تراجمه فيما نقله من نصوص .

ولن نعد هنا كتب التراجم التى نقل عنها ابن سعيد ، ولكنا نكتفى بالإشارة إلى بعضها مما يذكره هو فى كتابه « المغرب » . فهو بالإضافة إلى ما أفاده فى التاريخ من كتب « المسهب » للحجارى ، و « المقتبس » و « المتين » لابن حيان المؤرخ المشهور و « تاريخ أفريقية والمغرب » للرقيق القيروانى فإنه أفاد فى

ميدان التراجم والسير والطبقات من « الذخيرة » لابن بسام ، و « سقيط الدرر ولقيط الزهر » لابن اللبانة المتوفى سنة ٥٠٧ هـ و « قلائد العقيان » و « ومطمح الأنفس » لابن خاقان ، و « المطرب من أشعار أهل المغرب » لابن دحية المتوفى سنة ٦٣٣ هـ ، و « خريدة القصر وجريدة العصر » للعماد الأصفهانى ، و « يتيمة الدهر » للثعالبي .

وابن سعيد فى ترجمته للرجال لا يتحرج من ذكر مساوئهم والإشارة إلى عيوبهم ، مما قد يكون ستره أولى ، وإخفاؤه أجمل . وهو لا يقصد التشهير طبعا بمن يترجم لهم حتى ولو كانوا من معاصريه أو من ملاقيه . ولكنه — إمعانا فى الأمانة التى اشتهر بها فى النقل — يمعن فى وصف الصورة لمن يترجم لهم ، حتى تكون صادقة غير ناقصة الملامح . ففى ترجمته للهبدورة المخنث المشهور بقرطبة ، أورد عنه حكاية من الأدب المكشوف ، وهو — وإن كان ناقلا لها عن الحضرمى — كان أولى بكتمانها[1] وفى ترجمة ابن سعيد للبياسى — وكان صديقا له ومستفيدا منه — لم يتحرج من الإشارة إلى ما ابتلى به من البخل الشديد قائلا : « إلا أنه يلى بالتقتير على نفسه ، إلى حين حلول رمسه ، فكان يجمع

(١) المغرب ج ١ ص ١٧٢

ما يحصل له من المرتب وأنواع الإحسان ، ولا يخرج من ذلك إلا مالا بد له منه مما يقيم به أود الأنسان »[١] . وفى ترجمته لعبد الواحد الأعمى الأشبيلى لا يفوته أن يذكر بعض عوراته قائلا عنه : « ودخل نمط المريدين وهو شيطان مريد . . . »[٢] وفى ترجمته لأبى المحامد القرطبى الشاعر الذى لقيه بالقاهرة يقول عنه : « شيخ قد طال عمره فى أكل الأعراض ، ووجد فى تلك البلاد — يعنى مصر — التغافل فانتهض فى صنعته الذميمة أى انتهاض . . . »[٣]

وهو — بجانب هذا — لا يتأخر عن أن يذكر لأصحاب الفضل فضلهم ، ولذوى الإحسان إحسانهم . فكثيرا ما ينصف المحسنين ويذكرهم بالخير ، ويثنى عليهم ويسجل مواطن الإحسان

فيهم ، كما فعل فى ترجمته لابن الجبان الشاطبى[٤] وترجمته لأبى عبد الله بن الخيال الأديب الشاعر الذى قابله بمدينة أشبيلية فقال عنه :(شاهدت منه بأشبيلية — أيام استحواز ابن الأحمر عليها وهو يكتب عنه — رجلا قد كمل عقله وتناهى نبله وحسنت

---

(١) اختصار القدح المعلى ص ٩٤ (٢) المصدر نفسه ص ٢١٠
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٢ (٤) اختصار القدح المعلى ص ٢٠٦

مجالسته ولطفت محاورته ، لا ينطق إلا بالإفادة ، ولا يبصر منه إلا الخير عادة . . .)[1] . ولا تقل مواطن إنصاف ابن سعيد للمحسنين عن مواطن ذكره لمساوىء المسيئين ، فهى مبثوثة فى صفحات كتبه كلها التى بين أيدينا ، مما يدل على أن الرجل مؤرخ أمين لا غير ، فهو لا يريد تشهيرا ولا تعريضا بأنسان ، ولكنه يصور الناس من جميع الزوايا والأركان . . .

ولا تفوت ابن سعيد روح الفكاهة الحلوة فى خلال ترجمته للرجال . فهو ليس متزمتا ولا متوقرا ، ولكنه يرسل النفس على سجيتها ، شأن الأديب الشاعر الظريف . ترجم « للبحبضة الحكيم » فلم يزد فى تعريفنا به فى سطرين ونصف سطر على قوله : « كان خفيف الروح . قصدته يوما عجوز وهو فى دكان ، فقالت له وهو بين جلسائه : ياسيدى ! أنت هـــو الحكيم البحبوضي ؟ فقال لها فى الحين : ياستى ! وأنت هى العجوز سوّ القوادة ؟ »[2]

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٦

(٢) المغرب قسم الأندلس جـ ١ ص ١٧٢

ولا يحجم ابن سعيد — فى تراجمه — عن رواية النكتة حتى ولو كانت خارجة أو ماسَّة. ففى ترجمته لأبى جعفر الوزغى المتوفى سنة ٦١٠ هـ - وهى السنة التى ولد فيها ابن سعيد — يعرفنا به فى سطر ونصف سطر ، ثم يتبع ذلك بحكاية عنه ، وهى أنه كان يعشق غلاما اسمه عيسى ، فقرأ عليه غلام اسمه محمد ، فمال إليه وقال :

تبدلتُ من عيسى بحب محمد
هديتُ ! ولولا الله ما كنت أهتدى
وما عن ملال كان ذاك وإنما
شريعة عيسى عطلت بمحمد !

٤ — وصاف البلدان ومذهب المعاينة

جال ابن سعيد المغربى فى كثير من بلدان المغرب والمشرق ، فهو رجل لم يكن قعددا ولا حلس بيت ، وإنما كان دائم الحركة . ألم يترك والده وحيدا فى الإسكندرية — وهما غريبان فيها عن الأندلس - يضرب فى القاهرة والفسطاط وحده ، باحثا ومنقبا عن الأدباء والرجال والكتب والمكتبات ؟ حتى فى الأندلس لم يكن يطيق الإقامة فى بلد ، وكثيرا ماتردد بين أشبيلية وغرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء وشريش وسبتة وبلنسية . وهذه الطبيعة الحيوية المتحركة فى ابن سعيد هى التى أهلته لأن يجوب بلاد المغرب وأفريقية وتونس ومصر والشام وحلب والعراق وأرمينية والحجاز على سبيل اليقين . وقيل إنه ذهب إلى غربى أفريقية ، وبلغ مصب نهر السنغال ، وإن كان هذا يحتاج إلى دليل قوى . وعلى الرغم من اشتهار ابن سعيد بالأدب والتاريخ وتراجم الرجال فإن له شهرة بين الرحالين العرب عند المستشرقين ، كما أن له منزلة خاصة بين الجغرافيين العرب .

وإذا كانت لابن سعيد أوصافه الجغرافية الخاصة بكثير

من البلدان التى زارها ، فإنه كثيراً ما كان ينقـــل الوصف الجغرافى عن كتب السابقين . فحين يتحدث مثلا عن مدينة « باجة » الأندلسية ، فإنه ينقل النص عن كتاب الرازى «أحمد ابن محمد بن موسى» المتوفى سنة ٣٤٤ الذى اشتهر بكتبه عن آثار الأندلس وأخبارها . وكذلك نرى نقوله عن الرازى فيما كتبه هذا عن مدينة أشبونة ، ومدينة شنترين ، وكورة مورور الأشبيلية ، والجزيرة الخضراء ، ومدينة شلب[١].

ومن نقوله عن «المسهب» للحجارى مانقله فى الحديث عن مدينة رية ،ورندة ، وبطليوس ، ورمادة ، وشاطبة ، ودانية ، ولورقة وغيرها .

وهذه النقول تنفعنا كثيرا لأنها صانت لنا نصوصا كثيرة من كتب مفقودة أو لم تصل إلينا ، كما أنها تفيدنا فى معرض المقابلة بين النص الأصلى - إن وجد - وبين النص المنقول .

ويمتاز ابن سعيد الرحالة بدقة وصفه للمدن والأماكن مع الإيجاز الذى لايخل ولا يضيع أهم المعانى ، ففى تعريفه بجزيرة « قبطل » من أعمال أشبيلية يقول : « جزيرة كبيرة مشهورة فى

---

(١) انظر فى هذا كتاب المغرب جـ١ فى عدد من الصفحات المختلفة

نهر أشبيلية ، والماء عندها غير عذب ، لقرب البحر المحيط منها، وخيلها تجلب إليها من أشبيلية ، وهى خصبة[١] » . وفى تعريفه لمدينة طريانة يقول : « هى مدينة ممتدة على شاطىء النهر الأعظم فى مقابلة النصف من حضرة أشبيلية ، وهى مسورة من جهة الصحراء ، وفيها الحمامات أو الأسواق الضخمة . وقد بنيت على تاج مطل على النهر . ومناظرها التى من جهة النهر سن فيها المعتمد بن عباد أن تبيض بالكلس لئلا تنبو العين عنها ، ومن لا ينهض إلى ذلك فيبنى من جهة الصحراء ، ولا يترك يبنى من جهه النهر ، فجاءت بديعة فتانة المنظر . وأكثر شراجيبها منقوشة مذهبة تخطف الأبصار ، ويكون فيها من أصناف الطرب فى الليالى القمرية ماهو مشهور فى البلاد ... »[٢]

وبالطبع فإن أوصاف ابن سعيد غير المنقولة للبلاد والأماكن، هى من وحى عبارته هو ومن ثمار مشاهداته الخاصة وذكرياته . ففى تعريفه بالجزيرة الخضراء يقول : « لما رجعت أشبيلية إلى ابن هود ، ولى على الجزيرة الخضراء والدى ، فأقمنا بها مدة فى عيش يجب ذكره والحنين إليه ، وفيها أقول :

---

(١) المغرب جـ ١ ص ٢٩٢

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٣

رعى الله أياما إذا سر غـــيرها
فإن سروري بعدهـا متـكلف

وعندما يخرج الإنسان من بابها يجد الميـــاه الجارية ، والبساتين النضرة . ونهرها يعرف بوادى العسل ، سمى بذلك لحلاوته ، وعليه موضع سهل ، عليه حاجب مشرف على النهر والبحر فى نهاية من الحسن يعرف بالحاجبية »[١]

ولا يفوت ابن سعيد أن يصف الأرض الزراعية وما فيها من ضروب النبات المختلفة ، ففى تعريفه الوجيز بكورة رندة الأندلسية يشير إلى كثرة مزارع القطن فيها [٢] وفى وصفه للديار المصرية لا يفوته أن يصور مزارع الكتان قرب القاهرة ، كما لا يفوته أن يصفها شعرا . وفى تعريفه بمدينة حصن جليانة يذكر لنا تفاحها الذى اختصها الله به ، وبه يضرب المثل[٣] . وفى تعريفه «بحصن شنش » لا ينسى أن يشير إلى كثرة أشجار التوت فيه لصناعة الحرير الذى يغل هناك غلة عظيمة[٤]

وللمحصولات غير الزراعية والزراعية أيضاً مكان الاهتمام

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٠
(٢) المصدر نفسه ص ٤٢٩
(٣) المغرب حـ ٢ ص ١٤٨
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٥

عند ابن سعيد ، فهو يشير إلى معدن الرصاص فى مدينة برجة الأندلسية ، وإلى معاصر الزيت فى مدينة «لقنت» ، كما يشير إلى مصانع — أو مطابخ — السكر والصابون فى مدينة الفسطاط بمصر(١) ، وإلى الزعفران الذى يزرع بمدينة بياسة الأندلسية ومنها يحمل إلى الآفاق .

ولا تغيب عن ابن سعيد رقة الشاعرية ولطف الحس حين يصف البلدان والمواقع بما عليها من مناظر الطبيعة الصامتة والصائتة . فالرجل كان شاعرا وأديبا قبل أن يكون رحالة ووصاف بلدان . ولكن هذه الشاعرية لا تطغى على دقة الوصف وضبط الموقع . كقوله فى التعريف بمدينة لوشة الأندلسية : « بينها وبين غرناطة مرحلة من أحسن المراحل، بين أنهار ، وظلال أشجار ، فى بساط ممتد ، تبارك الله الذى أبداه بديعا فى حسنه »(٢) وكقوله فى التعريف بمدينة أريولة الأندلسية : « لما رحلت من مرسية إلى البحر مررت بأريولة، فرأيتها فى موضع كأنه اقتطع من

(١) المغرب : القسم المصرى ص ١١
(٢) المغرب حـ ٢ ص ١٥٧

جنة الخلود . نهر سائل ، ودواليب نعارة ، وطيور شادية ، وأشجار متعانقة . ولها قلعة فى نهاية من الامتناع [١]» .

وحين يعجب ابن سعيد ببلد دخله ، فإنه لا يكتم إعجابه فى التعريف به ، ويطيل التردد إليه ، والتفرج عليه. ويصرح بذلك، كما فعل فى تعريفه بمدينة شريش الأندلسية حيث يقول : « من مدن الأندلس المليحة ظاهرا وباطنا ،دخلتها وتفرجت فيها كثيرا، وهى فى نهاية من العمارة وكثرة الأرزاق ولها رؤساء أغنياء ، لهم نعم واسعة ، ومن متفرجاتها « الجانة » وهى على النهر بهجة المنظر ..[٢]

وتبدو دقة ابن سعيد وشدة ملاحظته فيما وصف به القاهرة والفسطاط ، فلم يفته أن يشير حتى إلى كثرة الغبار بمصر وكثرة الحمير بها ، وضيق طرقاتها ، كما أوضحنا فى غير هذا الموضع من الكتاب .

ولعل وصفه لسكان القاهرة والفسطاط وأخلاقهم ومواضعاتهم هو صورة مما اختص به من صفته للسكان عامة فى أى قطر دخله،

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٦

(٢) المغرب جـ ١ ص ٣٠٢

فهو مفتوح العينين على العادات والتقاليد ومواضعات المجتمع . كما نراه فى وصفه لقلعة خولان بالأندلس فيقول عنها : «وأهلها لهم رجلة وشدة ودعارة مفرطة ، ولعبهم فى أكثر الأوقات فى ظاهر بلدهم بالرماح والسيوف » . وكقوله فى وصف مدينة «رية» الأندلسية وقد دخلها مع والده: « وكان والدى يفضلها ، ويعجب بها ، ولاسيما فى أيام فرجهم وخروجهم إلى كروم العنب والتين . ولقد خرجنا إلى كرم أقمنا فيه مدة منفعته ، فعددنا ذلك من أيام النعيم ..»(١)

ولا تفوت النكتة الحلوة صاحبنا فى وصفه البلدان أيضاً ، كما لم تفته فى تراجم الرجال . ولا بأس أن نختم هذا الفصل بوصفه الطريف المليح لمدينة «العقبين» الأندلسية وأهلها . قال: « وأهل العقبين يوصفون بالجهل الكثير ، قد غلبت عليهم البداوة ، وبعدت عنهم آداب الحضارة . اتفقوا مرة على أن يجمعوا فريضة يبنون بها ما وهى من جامعهم ، فبقى منها فاضلا قدر خمسة دنانير . فاجتمعوا لأبداء الرأى فيما يصرفونها فيه ؛ فتكلم كل أحد بما عنده ، ورأى الأكثر منهم أن يشترى بها منبر للجامع ، فإن منبره العتيق قد تكسر . فتحرك فلاح منهم وقال :

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٢٣

دعوا الهذيان ، واشتروا كلبا يحفظ غنمكم من السباع ! فقالوا له : نحن نقول منبر وأنت تقول كلب ؟ ! ، واتفق رأيهم على المنبر . فلما كان فى يوم ضباب خرجت غنم البلد فهجمت عليها السباع ، ووقع الصياح بذلك ، فجرى البدوى إلى الجامع مع من استعان به من أهل الجهل ، وأخذوا المنبر على أعناقهم ، وأخرجوه إلى إمام البلد ، وقال البدوى : قولوا لهذا المنبر يخلص غنمكم من السباع[١] !!

(١) المغرب : القسم الأندلسى جـ ٢ ص ١٨٦

٥ — ابن سعيد الشاعر

يحدثنا المغربي صاحب « نفح الطيب » أنه وقف على بعض ديوان شعر ابن سعيد المتعدد الأسفار ، ونقل بعضه[1] . ولكن هذا الديوان مما تغيبه الأيام إلى الآن فى بطونها ، فلم يعرف له مكان ولا حدثنا أحد من العرب والمستشرقين — على كثرة اهتمامهم بالرجل — عن وجوده فى مظنة ما من المظان المخبوءة فيها كتب التراث .

وإذا كان ديوان شعر ابن سعيد ضائعاً فإن مما يعزينا بعض العزاء ، أن « المقرى » روى قدراً لا بأس به من شعر ابن سعيد وهو فى معرض الحديث عنه والترجمة له . وأغلب الظن أن هذا القدر ضئيل بالنسبة للديوان كله الذى يقول عنه صاحب النفح إنه « متعدد الأسفار » . على أن ابن سعيد قد روى لنفسه فى « المغرب » بعضاً من شعره فى مساحة لا تتجاوز سبع صفحات . وهو قدر ضئيل أيضاً . ولكن الرجل لم يأت بالشعر فى « المغرب » إلا على سبيل المثال .

---

(١) نفح الطيب جـ١ ص ٤٥٢

ولقد اهتم المستشرقون المتصلون بالميدان الأندلسى بشعر ابن سعيد ، وعدوه من شعراء الأندلس المجيدين ، وترجموا نماذج منه إلى الأسبانية ، كما صنع المستشرق «بالنسيا» ، وإن كان المستشرق غرسيه غومس قد تجاوز قيمة ابن سعيد الشعرية إلى قيمته الأدبية فى كتابه « المغرب » ولكنه مع هذا اختار له ثلاث قطع صغيرة فى وصف معركة ، والريح ، وصفة فرس أدهم أبيض الصدر(١) .

وقد حكم الدكتور شوقى ضيف فى مقدمته لكتاب «المغرب» الذى حققه وعلق عليه ، على شعر ابن سعيد المغربى بأنه « شعر متوسط ، قلما يرتفع فيه إلى أفق فنى عال ، فأجنحته لم تكن من القوة بحيث تجعله يحلق فى آفاق الفن والشعر العليا » . ووقف المرحوم الدكتور زكى حسن موقفاً أسخى من موقف الدكتور ضيف ، فأقر بأن « له بعض الصور الشعرية الجميلة ، ولكن معظم شعره عادى »(٢) ، ولكن الدكتور زكى حسن سخا من ناحية وضنّ من أخرى ، فجعل معظم شعر الرجل عادياً ، مع أن الدكتور شوقى جعله متوسطاً .

---

(١) الشعر الأندلسى : لغومس : تعريب حسين مؤنس ص ١٠٣ — ١٠٤

(٢) المغرب قسم مصر صفحة ٢٣٢

والحق أن ابن سعيد لا يحلق إلا نادراً ،ومع هذافهولا يقل شاعرية عن كثير من شعراء عصره الذين ترجم لهم فى المغرب والقدح المعلى والغصون اليانعة . ويكفيه أنه كان شاعراً ذا ذوق وحس مرهف ، ولم يكن جامد الحس أو متبلداً ، وأشعاره فى الغربة والحنين إلى الوطن مثال لرهافة الحس ، والتهاب المشاعر. كما أن أشعاره فى الوصف تحمل الدقة فى أداء ملامح الصورة وإن كان وصفاً حسياًمادياً لا يصور لناانفعالات الشاعر بالطبيعة واستجابته لها إلا قليلا . أما غزله ونسيبه فيتسم بالرقة مع الصراحة والبعد عن التصنع أو محاولة إبداء التوقر ، وخاصة فى مجالى لهوه ، ومجالس أنسه . فهو يرسل الشعر طلقا بلا تزمت . وقد تعطفه إلى التوقر والتزمت عاطفة خاصة، بحكم اشتغاله بالعلم والتاريخ فوق الأدب والشعر، ولكن الناحيةالمنطلقة من الشعر تدعوه إليها ، فلا يلبث أن يلبى . . وماذا يتبقى من الانطلاق أكثر من قوله فى مجلس لهو وشراب له بمدينة شريش :

طاب الشراب لمعشـــر سلبوا المروءة فاستراحوا
لا يعرفـــون تسترا السكر عندهمُ مباح!
متهتكون لدى المنى وفسادهم فيها صلاح . .

على أن الصدق فى التعبير هو أكثر ما يعنينا من شعر ابن سعيد وشاعريته فهو ليس محاكيا ولا ناسجا على منوال غيره، ولكنه معبر عن حقيقة حاله .

وعبارة ابن سعيد فى شعره ليست متدنية ولا متسفلة، فأسلوبه عال رصين ، وبناؤه محكم متين . انظر إلى قوة عبارته فى مدحه للمعتضد الباجى ملك أشبيلية :

لله فرسان غدت راياتهم مثل الطيور على عداك تحلق
السمر تنقط ما تخط سيوفهم
والنقع يترب ، والدماء تخلّق

وانظر إلى قوله فى صفة فرس أدهم مبيض الصدر :

وأدهم آخر مبيض صدر مطار بين أجنحة الرياح
يريك متى أدرت اللحظ ليلا بهيما قد تعرى عن صباح
لقد أرضى بنى سام وحام فما يصغون فيه لقول لاحى
وماهامت به الأحداق حتى تضمن حسنه حدق الملاح

إن لابن سعيد من مثل هذا الشعر العالى النفس ، الرصين العبارة ، الدقيق المعنى كثيرا مما سيجده القارىء فى الفصل الرابع

من هذا الكتاب . ونظرة عادلة متأنية إلى هذا الشعر تجعلنا نطمع فى أن يغير الدكتور شوقى ضيف حكمه القاسى على هـذا الشاعر الصادق الإحساس المعبر عن تجربة لا عن تقليد . . .

ولعل معنى ابن سعيد فى أن الرياح «قوادة» بين الأحباب هو من المعانى اللطاف المبتكرة ! اسمعه يقول فى الريح :—

الريح أقود ما تكون ، فإنها
تبدى خفايا الردف والأعكان
وتميِّل الأغصان بعد إبائها حتى تقبل أوجه الغدران
ولذلك العشاق يتخذونها
رسلا إلى الأحباب والإخوان . !

ومن الطريف أن المقطعات الثلاثة السابقة هى مما اختاره المستشرق « غومس » ليترجم إلى الأسبانية !

ولقد قال ابن سعيد المغربى الشعر فى أكثر الأغراض التى كانت دائرة فى عصره ، والتى نظم أكثر الشعراء فيها ، فقال فى الوصف ، والمدح ، والاعتذار ، والشوق ، والحنين إلى الأوطان ، والعتاب ، والرثاء ، والغزل ، والخمريات ، واللهو ، كما قال فى الشعر الدينى ، والمدح النبوى . وهو وإن كان أثر عنه كثير من

شعر اللهو والطرب ، لم يكن متهتكا ولا خالعا لعذار الحياة ، ولكنه كان شاعراً أديبا يأخذ من أنس الحياة ولهوها بأطيب نصيب .

ولقد كان ابن سعيد يميل إلى المطارحات فى شعره ؛ ولعلها كانت بدعة ذلك العصر . فنرى له مطارحات وإجازات شعرية مع عبد الحق القرطبى ، ومع ابن أبى الأصبع المصرى ، ومع الغسانى وزير البلاط فى تونس ، ومع الفقيه ابن بلال[1]

وكان ابن سعيد يعمل الشعر على سبيل المشاركة لا المطارحة ، فيشترك هو وواحد أو أكثر فى عمل أبيات أو قصيدة تنسب إلى مجموعهم ، ولا ينسب بيت منها إلى واحد بعينه . وقد جرب هو المشاركة فى التأليف ، فإن كتاب « المغرب » صنع بالمشاركة مع جماعة قبله كتبوه بالموارثة . وهو من أندر ما نراه فى الإنتاج التأليفى عند العرب . ومن الشعر الذى اشترك فيه ابن سعيد والغسانى وابن يامن قولهم فى وصف شمعة :

ما بال شمعتنا كقلبى تخفق   أبدا تهيم كما أهيم وأعشق
أم زارها سارى النسيم بسحرة   فغدت إلى لقيا المعانق تعنق
عجبا لها ! فالجسم منها فضة   وجفونها ينهلُّ منها الزئبق

(١) انظر النفح ص ٤٥٠ ، ٥٠٠ ، ٣٧٨ واختصار القدح المعلى ص ١٣٥ ، ٨٦

عريانة وثيابها فى جوفها لـكنها من حرقة تتحرق
زفت ظلاما كالعروس بحليها لـكنها عند الصباح تطلق
تفنى الدياجى وهى فانية بها وبمائها إيان تشرق تشرق(١)

ومن شعره كذلك الذى اشترك فيه مع غيره ، القصيدة التى نظمها بالاشتراك مع الشاعر ابن سهل الإسرائيلى الأندلسى ، حين خرجا إلى مرج الفضة . . يجتليان محاسن الطبيعة . ومنها قولهما : —

غيرى يميل إلى كلام اللاحى ويمد راحته لغير الراح
لا سيما والغصن يزهر زهره ويميل عطف الشارب المرتاح
وقد استطار القلب ساجع أيكه من كل ما أشكوه ليس بصاحى

(١) اختصار القدح المعلى ص ٥٤

٦ – بين الذوق الأدبي والنقد

جمع ابن سعيد المغربى إلى نظم الشعر حسن التذوق الأدبى، ووضوح حاسة النقد عنده وظهورها فى كل مكان يروى فيه شعرا لغيره. فهو لا يكتفى فى تراجمه للشعراء برواية نتف من أشعارهم، ولكنه يعلق عليها، ويزنها بميزان النقد، ويكشف عما فيها من محاسن أو مساوىء.. بل قد يبلغ المدى أن يحكم على شاعرية رجل وجودا وعدما، كما فعل فى موقفه من الشاعر «شميم الحلى» من مشهورى الشعراء بالمشرق فى القرن السادس. فقد قال وهو يترجم له فى كتاب: «الغصون اليانعة»: «جملة أمر هذا الرجل أن ذكره فوق شعره، فعلى كثرته لم أقف له على ما فيه إغراب ولا إبداع»[1] ثم وصفه فى موضع آخر من ترجمته له بعدم غوص فكرته، وعدم النهوض بها إلى الطبقة العالية ذات الإغراب والإبداع؛ ويقول فى موطن آخر رادا على من يتعصب له ويصفه بأنه إمام فى العلماء والزهاد: «إن كنت منصفا لم أقصر به من جهة علمه ولا زهده، بل من جهة الشعر،

---

(١) الغصون اليانعة لابن سعيد المغربى ص ٦

لكونكم أوجبتم له من الشهرة والتقديم فيه ما لا يقوم عليه برهان ..»[1]

ويعجب ابن سعيد برائعات الأشعار ويطرب لها، كما يعجب بأبكار المعانى التى أجاد أصحابها من الشعراء التعبير عنها، فهى تجمع بين طرافة المعنى وحسن الصوغ : ولا يمسك صاحبنا عن مثل قوله فى الإعجاب : «لم أسمع بمثل قول فلان» ، أو «لم أقف على شىء أبدع من قول فلان» ، أو «لم أسمع فى المعنى الفلانى مثل قول فلان» . وهى عبارات نقلها لنا صاحب «نفح الطيب» وهو فى معرض الحديث عن أخباره[2] . فمنها قوله : «سمعت كثيرا من السماع المشرقى فلم يهزنى مثل قول الشريف الشمسى المكى :

مقل بالدمع غرقى وفؤاد طار خفقا
وتجنٍّ وتثن شق جيب الصبر شقا
ياثقاتى خبرونى عن حديث اليوم حقا
أكذا كل محب فارق الأحباب يشقى ؟
لا وعيش قد تقضى وغرام قد تبقى

---

(١) المصدر نفسه ص ٨

(٢) نفح الطيب جـ١ ص ٥٠١

ونعيم في ذراكم قد صفا دهر ورقا
ونسيم من حماكم حمل الوجد فرقا
برسالات صبابا ت على المشتاق تلقى
وغصون ناعمات بمياه الدن تسقى
ووجوه فقن حسنا فملأن الأرض عشقا
لو رضيتم بي عبدا مارضيتُ الدهر عتقا

ومنها قوله : « ما سمعت ولا وقفت على شيء أبدع من قول الجزار وقد تردد إلى جمال الدين بن يغمور رئيس الديار المصرية فلم يقدر له الاجتماع به :

أسأل الله أن يديم لك العز ويبقيك ما أردت البقاءَ
كل يوم أرجو النعيم بلقيا ك فألقى بالبعد عنك شقاء
علم الدهر أنني أشتكيه لك إذ نلتقي ، فعاق اللقاء !

ومنها قوله : « لم أسمع في وضع الشيء موضعه أحسن من قول المتنبي :

وأصبح شعري منهما في مكانه
وفي عنق الحسناء يستحسن العقد[1]

(١) يقصد المتنبي بضمير المثنى في منهما ممدوحه الحسين بن على الهمذاني ووالده

ولم أسمع فى وضع الشىء غير موضعه أحسن من قول أبى الفرج :

مرّ مدحى ضائعاً فى لؤمه كضياع السيف فى كف الجبان

ومن تعليقات ابن سعيد ووزنه للشعر بميزان الصيرفى البصير قوله عن « عبدالدائم المعلم » من شعراء الفسطاط فى عصره : « وأنشدنى لنفسه فى خيالىٍّ ، مالم يقل أحد فى معناه أحسن منه :

وافى خيالىٌّ كأن إزاره جدث أقيم الحشر من أمواته

فكأنه عيسى يقيم شخوصها ويحل فيها الروح من كلماته[1]

وقد لا يرضى ابن سعيد عن شعر شاعر فى جملته ، ولكنه يعجبه منه معنى بديع مبتكر فلا يلبث أن يشير إليه ، كما فى موقفه من الشاعر الجزار المصرى الخفيف الروح ؛ فحين لقيه لأول مرة فى الإسكندرية وأنشده شعره لم يستحق عنده إظهار غاية الاستحسان ، ولا فى الطبقة علو المكان ، إلى أن أنشده معنى غريباً فى الصداقة والأصدقاء ، فاستحسنه جداً واستحسن له طائفة من الأشعار رواها له فى « المغرب »[2].

---

(١) المغرب قسم مصر ص ٢٩٦

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٧

وهو حين يحتار من شعر المترجم لهم لا يرضى إلا بالجيد الذى يصلح للرواية . فحينما وقف على ديوان ابن الكيزانى الشاعر المصرى الصوفى فى القرن السادس، وأراد أن يختار منه لم ير فيه ما يصلح للاختيار على حد تعبيره[١].

وأحياناً لا يقف ابن سعيد فى تقويم الشاعر عند معنى معين، ولكنه قد يحكم على شعر الشاعر فى جملته ، كما فعل مع الأديب الكاتب ابن طلحة ، فقد حكم عليه بأنه (له شعر فى الطبقة العالية) وأورد منه بعضه[٢].

ومن أحكامه على الشعر الهابط قوله فى نقد شعر عتيق بن ميسرة : «وأكثر شعره سخيف المقطع والمنزع[٣]» وقوله فى نقد أبى بكر ابن الأسبتى الأندلسى : « وعهدى به شاعر طويل النفس، لكن فيما يدل على تمكن الهوس ، قلما يأتى بطائل ، ولو أمدّ بلسان سحبان وائل ، إلا أنه قد يندر له مايكون رمية من غير رام»[٤] وقوله فى الحكم على ما سمعه من شعر ابن عفير الأندلسى

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦١

(٢) المغرب قسم مصر ج ٢ ص ٣٦٤

(٣) اختصار القدح المعلى ص ١٧٤

(٤) المصدر نفسه ص ١٧٧

« وأنشدت له مقطعات عدة لم أرضها ، لما قلبت سماءها وأرضها . . »(١)

ومن أحكامه على ما أنشده من الشعر الجيد قوله فى ترجمة ابن عتبة الأشبيلى : « ومما أنشدنيه من شعره الذى هزنى هز الحسام فى يد الشجاع ، وحاز به غاية الإبداع والانطباع »(٢) .

وأحياناً يحكم ابن سعيد على شعر شاعر بأنه من «المرقصات» كما فعل فى ترجمته لابن خروف القرطبي ، فقد روى له شعره فى راقص ، وحكم عليه بأنه من « المرقصات »(٣) .

والحكم على الشعر بأنه «مرقص» يجرنا إلى تقسيم ابن سعيد المغربى لطبقات الشعر فى رأيه إلى المرقص ، والمطرب ، والمقبول ، والمسموع ، والمتروك . فالمرقص ما كان مخترعاً أو مولداً يكاد يلحق بطبقة الاختراع لما يوجد فيه من السر الذى يمكن أزمة القلوب من يديه ، ويلقى منها محبة عليه . والمطرب ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع إلا أن فيه مسحة من الابتداع . والمقبول ما كان عليه طلاوة مما لا يمكن فيه غوص على

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٥

(٢) اختصار القدح المعلى ص ١٦٣

(٣) المغرب قسم مصر ج ١ ص ١٣٧

تشبيه وتمثيل وما أشبه ذلك . والمسموع ما عليه أكثر الشعراء مما به القافية والوزن دون أن يمجه الطبع ، ويستثقله السمع . والمتروك ما كان كلاً على السمع والطبع[١] . ولا يجتمع لشاعر ـ مهما كان قدره ـ المرقص والمطرب دون غيرهما ، بل لا بد من أن يقع فى شعره بقية الطبقات من المقبول والمسموع والمتروك . وقد جمع ابن سعيد فى المرقص والمطرب من الشعر العربى حتى عصره فى القرن السابع كتاباً اسمه « عنوان المرقصات والمطربات » ، وهو يجمع أبدع ما فى روائع الشعر العربى من أبيات .

ومن المرقص من شعر جميل بن معمر عند ابن سعيد قوله :

يضم علىَّ الليل أطراف حبها   كما ضم أطراف القميص البنائق

ومن المطرب قوله :

ذكرتك بالديرين يوماً فأشرفت   بنات الهوى حتى بلغن التراقيا

ومازلت بى يابثن حتى لو اننى   من الوجد أستبكى الغمام بكى ليا

ويحكم ابن سعيد على عمر بن أبى ربيعة بأن أكثر شعره من طبقة المقبول ، وإن كان قد وقع له فى طبقة المطرب بعض أبيات . ومعنى هذا أنه لم يقع له فى طبقة المرقص شىء . .

---

(١) عنوان المرقصات والمطربات ص ٤ ، ٥

وقد أنصف الشاعر الناقد المتذوق ابن سعيد المغربى نفسه ، وحكم لها بأن له أبياتاً من طبقة المرقص، كقوله فى وصف جورة الصالحية وإحداق النيل بها :

وعانقها من فرط شوق لحسنها فمد يمينا نحوها وشمالا

وقوله :

تزاحم فى جانبيه الغصون كخيل فوارسهن الحمام

كما ذكر لأبيه موسى بن سعيد ثلاثة أبيات من طبقة المرقص . . . ولعله رحمه الله ، حابى أباه وظلم عمر بن أبى ربيعة حين لم يقع له من الشعر المرقص على شىء . .

٧ — مؤلفاته

بلغت مؤلفات ابن سعيد المغربى ثلاثين كتاباً ، ذكر صاحب «نفح الطيب » منها اثنى عشر كتابا فى مواطن متفرقة من كتابه ، فلم يذكرها كلها فى موطن واحد ، لأن ترجمة ابن سعيد فى النفح طويلة ومنقولة ومتداخل بعضها فى بعض ، ومحشوة بتراجم داخلية للملك العادل الأيوبى ، وابن مروان الرباطى ، وأبى عبد الله بن الحسين — ابن عم ابن سعيد — والمستنصر الحفصى ملك تونس ، وموسى بن سعيد والد المترجم له . ولم يطبع من كتب ابن سعيد المغربى إلا بضعة سنشير إلى كل واحد منها فى موضعه ، أما الباقى — وهو كثير — فمفقود أو مجهول المكان. وهذا بيان الكتب وتعريف وجيز بكل منها :

١ — (المغرب فى حلى المغرب). ذكره صاحب «نفح الطيب» وابن شاكر الكتبى فى « فوات الوفيات » والسيوطى فى « بغية الوعاة » وذكر أنه اطلع عليه . كما ذكره فى « حسن المحاضرة». والمغرب هو الكتاب الذى ألفه ابن سعيد بالمشاركة مع خمسة من أهل الأندلس سبقوه . واستغرق تأليفه مائة وخمسة عشر عاماً منذ كتب (الحجارى) أول فصوله . وهو من هذه الناحية

كان أعجب المصنفات فى المكتبة العربية ، لطول مدة تأليفه من ناحية ، ولكثرة المتعاقبين على كتابته من ناحية أخرى . وقد ذكره صاحب الفوات باسم (المغرب فى أخبار المغرب) ،وأسماه صاحب المنهل الصافى : (المغرب فى أخبار أهل المغرب) كما ذكره حاجى خليفة باسم «المغرب،فى محاسن حلى أهل المغرب». أما السخاوى صاحب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) فقد ذكره باسمه المعروف : (المغرب فى حلى المغرب) كما ذكر له أيضاً كتابا آخر اسمه (المغرب فى محاسن المغرب) . وأغلب الظن أنه واهم فى هذا .

والمغرب فى قسمه الأندلسى مطبوع فى دار المعارف بمصر بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، فى جزءين كبيرين . أما المغرب فى قسمه المصرى فقد حققه الدكتور زكى محمد حسن ، والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، ولم يظهر منه إلا جزء واحد قامت بطبعه كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٣ .

٢ — (المشرق ، فى حلى المشرق) . بدأ فكرة الكتاب موسى بن سعيد والد المترجم له ، وجمع أكثر مادته إلى أن قطعه انتهاء العمر ، فقام الابن بترتيب المادة ولحم مابين أجزائها .

وقد ذكره صاحب « نفح الطيب » ، وابن شاكر في « فوات الوفيات » والسيوطى فى « بغية الوعاة » وفى « حسن المحاضرة »، وحاجى خليفة فى « كشف الظنون » . ويذكر الدكتور زكى محمد حسن أن بمكتبة أحمد تيمور نسخة خطية من هذا الكتاب ولا ندرى ما الذى يمنع من نشرها مادامت قسيمة لكتاب المغرب ؟

٣ — (الغصون اليانعة ، فى محاسن شعراء المائة السابعة) . وقد نشرته دار المعارف بتحقيق الأستاذ إبراهيم الأبيارى عن مخطوطة فى مكتبة الإسكوريال نسخها وحمل المنسوخ إلى مصر لينشره . وقد صنع المحقق تعريفا بالكتاب يثبت فيه أنه لابن سعيد المغربى ، لا لابن الخطيب كما ذكر بونس بويجس ، ولا لابن الأبار كما ذكر ليفى بروفنسال وتابعه بروكلمان .

٤ — (القدح المعلى فى التاريخ المحلى). وفيه تراجم لمعاصريه من أدباء الأندلس وشعرائها فى النصف الأول من القرن السابع، ويحدثنا فيه عن تلاقيه مع أكثر هؤلاء الشعراء وذكرياته معهم، ويرسل نفسه على سجيتها فى نقد هؤلاء الرجال وتصوير طباعهم. وقد اختصره أبو عبد الله محمد بن خليل . وفى أوله ترجمته بقلمه لنفسه . وأغلب ظنى أنها ليست بقلمه ، لأن فيها مغالاة فى

المدح . وقد نشر « اختصار القدح المعلى » بتحقيق الأستاذ إبراهيم الإبيارى وإشراف الإدارة العامة للثقافة سنة ١٩٥٩ ، وقرىء على الدكتور طه حسين . وقد وقعت بالتحقيق أخطاء كثيرة وخاصة فى أسماء بحور الشعر ، فاختلط المسرح بمخلع البسيط ، والطويل بالمتقارب ، والمديد بالخفيف ، والرمل بالمديد ...

٥ — (المرقصات والمطربات) وقد ذكره صاحب « النفح » و « فوات الوفيات » ، « وبغية الوعاة » . وأسماه ابن شاكر الكتبي : « المرقص والمطرب » ، وكذلك فعل صاحب « المنهل الصافى » . ونشر الكتاب مطبوعا سنة ١٢٨٦ ﻫ بمطبعة جمعية المعارف بمصر تحت اسم « عنوان المرقصات والمطربات » ، وهو الاسم الذى ذكره ابن سعيد نفسه فى المقدمة . وينسب ابن سعيد البيت من الشعر للشاعر كما عرفه، ثم يقول: وقد نسب لفلان أو فلان ، إذا تنازعه أكثر من شاعر ، كالأبيات الضادية فى وصف قوس قزح، فقد نسبها لسيف الدولة بن حمدان ـ كما فعل الثعالبي فى اليتيمة ـ ثم قال : وقد نسب لابن الرومى، ولابن حماد المغربى. ويحتاج هذا الكتاب النفيس إلى إعادة طبعه محققا.

٦ — الغرة الطالعة ، فى فضلاء المائة السابعة) . هكذا ذكره صاحب « نفح الطيب » ، وقال إن الشهاب التلعفرى

الشاعر له ذكر فيه . ولما كان الشهاب هذا مذكورا فى «الغصون اليانعة،فى محاسن شعراء المائة السابعة » الذى سبق الكلام عليه، فأغلب الظن أنهما كتاب واحد .

وقد ذكره صاحب كشف الظنون ، كما ذكره السيوطى فى « بغية الوعاة » ، وإن كان المحقق قد وهم فأسماه « العزة الطالعة » بالعين المهملة والزاى .

٧– (رايات المبرزين ، وغايات المميزين) . ليس هذا الكتاب تأليفا جديدا ، ولكنه انتقاء من كتاب المغرب . وقد نشره المستشرق الأسبانى أميليو غرسيه غومس سنة ١٩٤٢ عن نسخة بالمكتبة الزكية مصورة عن نسخة بأستنبول . وللدكتور شوقى ضيف نقد لهذا الكتاب نشر بمجلة كلية الآداب سنة١٩٥١

٨– (عدة المستنجز ، وعقلة المستوفز) . أشار إليه صاحب نفح الطيب[١] وقال فى وصفه : (ذكر فيه أنه ارتحل من تونس إلى المشرق رحلته الثانية سنة ٦٦٦هـ . وأورد فى هذا الكتاب غرائب وبدائع) . وقد ذكر ابن سعيد فى هذا الكتاب قصة دخول التتار بغداد على يد هولاكو ، ومصرع الملك الناصر الأيوبى صاحب حلب على أيديهم . وهذا الكتاب مفقود .

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٥٠١

٩ – (المقتطف من أزاهر الطرف) . ذكره صاحب نفح الطيب نقلا عن الإحاطة لابن الخطيب . وهو فى الموشحات . ولم يطبع حتى اليوم – كما فى علمنا . وفى مكتبة سوهاج مخطوطة لهذا الكتاب .

١٠ –(الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد) . ذكره صاحب النفح ، كما ذكره السيوطى فى « حسن المحاضرة »، والسخاوى فى « الإعلان » . واسمه فى الإعلان « الطالع السعيد ، فى تاريخ قلعة بنى سعيد » . مما يوهم أنه تاريخ للقلعة لا لأصحابها من بنى سعيد آباء المترجم له . وهو من الكتب المفقودة .

١١ – (المرزمة) . ذكره صاحب نفح الطيب نقلا عن « الإحاطة » ، ونقل ما تحدث به الوزير أبو بكر بن الحكيم أن ابن سعيد « خلف كتابا يسمى المرزمة ، يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس ، لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والأخبارية إلا الله تعالى .. »[١] . وهو مفقود .

١٢ – (المحلى بالأشعار). ذكره صاحب النفح، ونقل فيه عن القرطى المؤرخ المصرى قصة بناء الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى لقصر الهودج ، إكراما لعشيقته البدوية التى كان يحبها

(١) نفح الطيب ج١ ص٤٥٠

ابن مياح — ابن عمها — وظلت متعلقة به على الرغم من حصول الخليفة عليها فى القصر ، فكتبت إليه شعرا تقول فيه :

يا ابن مياح إليك المشتكى   مالك من بعدكم قد ملكا

وقد وهم بروكلمان فرجح أن هذا الكتاب هو « القدح المعلى » الذى سبق ذكره . ولكن القدح المعلى فيه تراجم لشعراء الأندلس ، والمحلى بالأشعار خاص بالحديث عن مصر ، فليس الاسمان لكتاب واحد كما يذهب إليه بروكلمان .

١٣ — (ديوان شعر ابن سعيد) وقد ذكره صاحب النفح وذكر أنه قد وقف على بعضه ، كما ذكر فى موضع آخر أنه نقل شعرا « من ديوانه الذى رتبه على حروف المعجم »[١]. ولانعلم شيئاً عن مكان وجود هذا الديوان ، أولعله مفقود .

١٤ — (ملوك الشعر) . ذكره ابن سعيد وتحدث عنه قائلا : « ولما جمعت للملك الناصر كتاب ملوك الشعر[٢] » ونقل صاحب « النفح » هذا الكلام . وذكره أيضاً صاحب « فوات الوفيات » .

١٥ — (النفحة المسكية ، فى الرحلة المكية) . ذكره صاحب النفح نقلا عن كتاب الإحاطة للوزير لسان الدين بن الخطيب

(١) نفح الطيب ص ٤٥٢ ، ٤٦٧

(٢) المصدر نفسه ص ٤٦٣

وجاء فى النقل قوله . « ... وحج ثم عاد إلى المغرب ، وقد صنف فى رحلته مجموعا سماه بالنفحة المسكية فى الرحلة المكية » ولا يدرى مكان هذا الكتاب .

١٦ — (نشوة الطرب ، فى تاريخ جاهلية العرب) . لم يذكره الذين ترجموا لابن سعيد أو كتبوا عنه . وقد ذكر الدكتور زكى محمد حسن نقلا عن « ترومبيتر » أن لهذا الكتاب نسخة مخطوطة فى مكتبة توبنجن بألمانيا .

١٧ — (كنوز المطالب ، فى آل أبى طالب) وقد ذكره صاحب « المنهل الصافى » ، وعنه نقل المرحوم الدكتور زكى محمد حسن ، وقد اطلعت أخيرا على كتاب « عنوان الأريب » للعلامة الشيخ محمد النيفر ، فذكر فى ترجمته الوجيزة لابن سعيد أن له « كتاب كنوز المطالب ، فى الأدب » ، ولعل صاحب المنهل الصافى أدرى بموضوع الكتاب من صاحب « عنوان الأريب » . وهو مفقود .

١٨ — (حل الرسائل) . ذكره صاحب المنهل الصافى ، ولم يذكر موضوعه . وهو مفقود .

١٩ — (الغراميات) . ذكره ابن تغرى بردى فى « المنهل » ،

وذكر فى كشف الظنون تارة باسم « الغرابيات » وتارة أخرى باسم الغرائبات . . . ولا يدرى على وجه التحقيق موضوعه . وهو مفقود .

٢٠ — (لذة الأحلام ، فى تاريخ أمم الأعجام) ذكر حاجى خليفة فى « كشف الظنون » طبعة استنبول سنة ١٣١١ﻫ أن اسمه « لذة الأحكام ، فى تاريخ أمم الأعجام » ، وقال إنه فى النحو فى مجلدين . . . وهذا غريب ! فكيف يكون عنوان الكتاب فى تاريخ أمم الأعجام ، ثم يقال بعد هذا إنه فى النحو؟ ولعله تخليط فى الطبع . وهو مفقود . ولم يذكره أحد غير صاحب « كشف الظنون » .

٢١ — (ريحانة الأدب ، فى المحاضرات) . ذكره حاجى خليفة، وقال عنه إنه « جمع فيه بين عيون الأخبار ،ومستحسنات الأشعار » وهنا أيضا ذكر حاجى خليفة أن ابن سعيد توفى سنة ٦٧٣ ﻫ . . . ولم يرد ذكره فى كتاب آخر ممن ترجموا لابن سعيد غير « بغية الوعاة » للسيوطى . وهو مفقود .

٢٢ — (نتائج القرائح ، فى مختار المرائى والمدائح) . ذكره حاجى خليفة، وذكر أن موضوعه هو ما اشتمل عليه العنوان، وأيضا هنا ذكر حاجى خليفة أن ابن سعيد توفى سنة ٦٧٣ ﻫ ،

فكأنه لم يأخذ بالقول الآخر الذى يقول إن وفاته كانت سنة ٦٨٥ ﻫ ، وهو الأرجح . وهو مفقود .

٢٣ – (حيا المحل، وجنى النحل) .ذكره صاحب « صبح الأعشى» فى الجزءين الثانى، والرابع عشر، ولم يذكر موضوعه. وهو مفقود .

٢٤ – (تاريخ مرتب على السنين) . هكذا ذكره حاجى خليفة ص ٢١٥ من « كشف الظنون » ، كما ذكر أن له تاريخا صغيرا أيضاً ذكر فيه من لقيه من المتأخرين . ولعل حاجى خليفة يقصد «القدح المعلى،فى التاريخ المحلى».وقد سبق الحديث عنه . وهنا يذكر حاجى خليفة أيضاً أن وفاة ابن سعيد سنة ٦٧٣ ﻫ .

٢٥ – (الملتقط من السلك) من حلى العروس الأندلسية . هكذا قال صاحب « كشف الظنون». ولعله يريد أحد الأسفار المشتمل عليها كتاب « المغرب فى حلى المغرب » .

٢٦ – (كتاب فى الجغرافية) له مختصر فى المكتبة الأهلية بباريس، وقد تحدث عنه وعن كتاب آخر فى البلدانيات المرحوم الدكتور زكى محمد حسن نقلا عن كاميرير ، وأمارى ، والمجلة الإيطالية للدراسات الشرقية . وهو مفقود .

٢٧ — (الأدب الغض) . انفرد بذكره المؤرخ السيوطى فى « بغية الوعاة » . وهو مفقود .

٢٨ — (كنوز الأدب) . ذكره ابن سعيد نفسه فى « الغصون اليانعة » ص ١٢ ، ثم عاد فذكره فى صفحتى ٣٦ ، ٤٨ ؛ وذكر أنه اختار فيه أشعارا لبعض الشعراء الذين ترجم لهم فى الغصون. وهو مفقود

٢٩ — (روح الأدب) . ذكره ابن سعيد نفسه فى « الغصون اليانعة » ص ٢١ ولا ندرى عنه شيئا .

٣٠ — (كنوز المعانى) . ذكره ابن سعيد نفسه فى كتاب « الغصون اليانعة » ص ٢١ . ولا ندرى عنه شيئا .

هذا ثبت بما تأكد وما قيل إنه لابن سعيد المغربى من مؤلفات، جمعناه من مصادر كثيرة . وللمرحوم الدكتور زكى محمد حسن فضل البداية بتسجيل ما لابن سعيد المغربى من مصنفات، وذلك فى مقدمته الطويلة الجيدة للقسم الخاص بمصر من كتاب المغرب. ولكننا نتتهز هذه الفرصة لنصحح وهما وقع فيه هنا كما وقع فى أوهام أخر أشرنا إليها فيما سبق من فصول. فقد ذكر ـ رحمه الله ـ أن لابن سعيد المغربى كتاب « المعرب ، عن سيرة ملوك أهل المغرب » وقد نقل هذا الكلام عن صاحب « كشف الظنون » بدون نظر ولا

تحقيق ، فقد فاته أن حاجى خليفة قال عن هذا الكتاب إن مؤلفه فرغ منه بالموصل سنة ٥٧٩ تسع وسبعين وخمسمائة — كما ذكره ابن خلكان . . . وفاته مع هذا أن ابن سعيد ولد سنة ٦١٠ ه . فكيف يفرغ من تأليف كتاب قبل أن يولد ويرى نور الوجود بواحد وثلاثين عاما ؟ ؟

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن سعيد

١- ابن سعيد الشاعر

ا- الوصف

وصف فرس أغر أكحل اللحية

قال من أبيات يصف بها فرسا أغر أكحل اللحية :

وأجرد تبرى[1] أثرت به الثرى ... وللفجر فى خصر الظلام وشاح
له لون ذى عشق وحسن معشق ... لذلك فيه ذلة[2] ومراح
عجبت له وهو الأصيل ، بعرفه ... ظلام وبين الناظرين صباح
يقيد طير اللحظ والوحش[3] عندما ... يطير به نحو النجاح جناح

(١) تبرى : نسبة إلى التبر وهو معدن الذهب .

(٢) الدلة : الدلال

(٣) يقيد الوحش أى أنه يسبقها ويجعلها كالمقيدة ، ومنه تعبير امرىء القيس فى وصف فرسه : « بمنجرد قيد الأوابد هيكل » .

نثار الجلنار

وقال ابن سعيد فى الوصف من مقدمة إحدى مدائحه لملك تونس أبى زكريا يحيى الحفصى :

الأفق طلق والنسيم رُخاءُ والرَّوض وشت برده الأنواءُ
والنهر قد مالت عليه غصونه فكأنما هو مقلةٌ وطفاء (١)
وبدا نثارُ الجلنار(٢) بصفحه فكأنما هـــو حيةٌ رقطاء
والشمس قد رقمت طرازا فوقه فكأنما هى حُلة زرقاء
فأدْر كئوسك كى تتم لك المنى واسمع إلى ماقالت الورقاء(٣)

خيلاء الخيل

وقال من قصيدة يصف خيلاً ضوامر مختلفة الألوان:

ولـكم سَرينا فى متون ضوامر(٤) تثنى أعنتها من الخيلاء

---

(١) المقلة الوطفاء : العين الكثيرة شعر الحواجب

(٢) الجلنار : زهر الرمان

(٣) الورقاء : الحمامة . أو الحمامة الضارب لونها إلى الخضرة .

(٤) الخيل الضوامر : جمع ضامر وهو الحصان النحيل الخفيف • والأعنة جمع عنان وهو لجام الفرس، والخيلاء العجب والتيه.

مِنْ أدهم كالليل مُحجَّلٍ بالضحى فتشقُّ غرتهُ عن ابن ذكاء (١)
أو أشهب يحكى غدائر أشيبٍ خلعت عليه الشهب فضل رداء (٢)
أو أشقرٍ قد نمقته بشعلة كالمزج ثار بصفحة الصهباء (٣)
أو أصفرٍ قد زيَّنته غُرةٌ حتى بدا كالشمعة الصفراء
طارت ولكن لا يُهاضُ جناحُها
هبَّت ولكن لم تكن برُخاء (٤)

جزيرة الروضة

وقال يصف الجزيرة « الصالحية » التى اشتهرت بعد ذلك بجزيرة الروضة ، وقد عمرها الملك الصالح نجم الدين أيوب :

---

(١) الفرس المحجل: الذى فى قوائمه بياض . والغرة ، بياض فى جبهة الفرس ويقال : فرس أغر . وابن ذكاء كناية عن القمر . لأن ذكاء هى الشمس ، وابنها هو القمر .

(٢) الأشهب: الذى يتخلل بياضه سواد. والغدائر: جمع غديرة، وهو المضفور من شعر النساء

(٣) الأشقر: ذو اللون الجامع بين الحمرة والصفرة . والاسم منه الشقرة . والصهباء الخمر .

(٤) يهاض جناحها: أى يكسر جناحها . والريح الرخاء : اللينة الهادئة

تأملْ لحسن « الصالحية » إذ بدتْ
مناظرها مثلَ النجوم تَلألَا
وللقلعة الغراء ، كالبدرِ طالعا تفجر صدر الماء عنه هلالا
ووافى إليها « النيلُ » من بعد غاية
كما زار مشغوفٌ بِروم وصالا
وَعانقها مِن فرْط شوق بحسنها فمدَّ يمينا نحوها وشِمالا
جرى قادما بالسَّعد فاختطَّ حولها
من السَّعد ـ إعلاما بذلك ـ دالا(١)

وادى الطلح

ولما كان ابن سعيد بأشبيلية قال يصف وادى الطلح الملتف الأشجار ، المترنم الأطيار ، وهو يقع شرقى أشبيلية :

سائل بوادى الطلّح ريحَ الصَّبا
هل سخِّرت لى فى زمان الصِّبا(٢)
كانت رسولا فيه مابيننا لن نأمن الرُسل ولن نَكتبا!

(١) اختط دالا : أى صور ما يشبه الدال إيذاناً بفرحته

(٢) ريح الصبا بفتح الصاد : ريح شرقية ، ويقابلها ريح الدبور . والصبا بكسر الصاد : زمن صغر السن .

واذكر بوادى الطلح عهداً لنا لله ما أحلى وما أطيبا !
بجانب العطف وقد مالت الأ غصان والزَّهر يبثُّ الصّبا
والطيرُ مازت بين ألحانها وليس إلا مُعجبا مطرِبا[1]

مرح الغصون بحلب

وقال حينما نزل بحلب يصف مواقع الطرف فيها :ـ

حادىَ العيس ! كم تُنيـــخ المطايا
سُقْ فروحى منْ بَعدهم فى سياق[2]!
«حلبٌ» إنها مقر غرامى ومرامى.. وقبـلةُ الأشواق
لاخلا «جوسق» ، «وبطياس» ،والسَّعْ
داء» من كل وابل غَيْـداق[3]
كم بها مرتع لطرفٍ وقلبٍ فيه يُسقى المُنى بكأس دِهاق

---

(١) مازت الطير بين الألحان : ميزت بين ألحان الطيور .

(٢) الحادى : سائق الإبل ، والعيس بكسر العين ، الأبل البيض المشوب بياضها بسواد خفيف . وأناخ المطايا أى جعلها تبرك . وسياق الروح هو حالة النزع عند الوفاة .

(٣) جوسق، وبطياس، والسعداء ، أسماء أمكنة. والوابل : المطر الشديد ، والغيداق الـكثير

وتَغنىٍّ طيورِه لارتياح وتَثنىٍّ غصونهِ للعناق
وعلوُّ الشهباء حيث استدارت أنجمُ الأُفق حولها كالنطاق

نواعير حماة

وقال يصف نواعير حماة :

حَمَى الله من شطَّى «حماة» مَناظرا
وقفتُ عليها السَّمعَ والفكر والطرفا
تغنىٍّ حمامٍ ، أو تميلُ خمائلٌ
وتُزهى مبان تمنح الواصف الوصفا

يلومون أن أعصى التصوُّنَ والنهُّى
بها ، وأطيعَ الكأسَ واللهو والقَصفا
إذا كان فيها النهر عاصٍ فكيفْ لا
أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا ؟!(١)

وأشدو لدى تلك النواعير شدْوَها
وأغلبها رقصاً ، وأشبهها عَرفا ؟

(١) نهر العاصى هو نهر حماة وسمى بالعاصى لأنه يجرى فى اتجاه مخالف لمجارى الأنهار فى الشام

تئنُّ وتُذرى دَمعها، فكأنها تهيم بمرآها وتسألها العطفا !!

حلق من فوقها حلق

ولابن سعيد يصف نوار نبات الكتان المزروع على جانبي الخليج المصرى :

انظر إلى النهر والكتَّان يرمقهُ
من جانبيه بأجفان لها حَدَقُ

رأته سيْفا عليه للصبا شُطَبٌ
فقابلته بأحداق بها أَرَقُ (١)

وأصبحتْ فى يد الأرواح تنسجها
حتى غَدَت حَلَقا مِنْ فوقِها حَلَق

فلم تزرها ووجهُ الأرض مصطبح
أو عند صفوته إن كنتَ تغتبقُ

---

(١) الشطب هى الطرائق أو الخطوط فى متن السيف . وريح الصبا تجعل على وجه الماء شطبا مثل الشطب التى فى وجه السيف .

المراكب فى الفسطاط

وقال يصف النيل والمراكب فيه عند الفسطاط حيث كان ينزل فى رعاية أبى الحسين الجزار الشاعر المصرى :

نزلنا من «الفسطاط» أحسنَ منزل
بحيث امتدادُ النيل قد دار كالعقد
وقد جُمِّعت فيه المراكبُ سُحرةً
كسرب قطا أضحى يرفُّ على وِرْد(١)
وأصبحَ يطفو الموج فيه ويرتمى
ويطرب أحيانا ويلعب بالنرد
حلا ماؤه كالريق ممن أحبه
فمدت عليه حلة من حُلى الخدِّ
وقد كان مثل الزَّهر من قبل مدِّه
فأصبح لما زاده المد كالورد

(١) سحرة أى وقت السحر . وسرب القطا أى جماعة القطا وهو نوع من الحمام . والورد بكسر الواو مكان ورود الماء

منازه دمشق

ولابن سعيد ذكريات سعيدة فى دمشق حيث كان يقضى أيام عطلة السبت فيها مع صديقه المؤرخ ابن العديم، حيث يخرج الناس إلى الميادين ، ويلعبون الصوالج ، وكل أحد فيما مال إليه هواه .. فقال :

أما دمشقُ فما فى الأرض مُشبهها
جنات عَدن بها ما يشتهى البَشرُ
أرضٌ لعمرك مافيها لمبتذلٍ
ذام يلوم ، ولا فى صفوها كَدرْ (١)
وكلُّ سبت بها عيدٌ تعود به آمالهم، وبه الزّلات تُغتَفر
كلٌّ إلى مادعته نفسه عَجِلٌ كأنما فرصةً قد جاءَ يبتدرُ
حيثُ الميادين كالديباج قد بُسطت
خضرا جَرَتْ حولها من مائها طرُرُ (٢)
بها النعيم غدا للناس مكتملا مطولا ، وهو فى الآفاق مختصر

---

(١) الذام هو العيب أو ما يذم عليه

(٢) الديباج الحرير ، والطرز جمع طرة وهى حاشية الثوب أو طرف البساط

القُضب راقصةٌ ، والطير صادحةٌ
والنشرُ مرتفع ، والماءُ منحدرُ
وقد تجلت من اللذّات أوُجهها
لكنها بظلال الدّوح تستتر
وكلٌّ وادٍ به موسى يفجّره وكل روض على حافاته الخضر(١)

(١) كان موسى عليه السلام يضرب بعصاه الحجر فينفجر ماء ، والخضر هو صاحب موسى عليه السلام . ولاحظ التورية التى استعملها الشاعر هنا فى كلمة الخضر ، أى أن فى كل روض مكاناً مخضوضراً كأنما مسته يد الخضر عليه السلام.

ب ـ المــدح

لابد للضيف من القرى

وقال يمدح الملك الناصر الأيوبى أمير حلب عندما وفد على بلاطه لأول مرة :

جُدْلى بماالقِى الخيالُ من الكرى

لا بُدَّ للضيفِ الملمِّ من القِرى(١)

واخجلتى منه ومنك . . متى أنمْ

عَيرتنى ، ومتى سهرت تنكرا . . !

من كل من جعل السُّروج أرائكا

والسُّمر قُضْبا ، والقواضبَ أنْهرا(٢)

---

(١) الكرى : النوم . الضيف الملم : الضيف النازل أو الطارىء ، والقرى بكسر القاف ما يقدم للضيفان من طعام

(٢) السروج جمع سرج وهو ما يوضع على ظهر الحصان . والأرائك : جمع أريكة وهى مقعد يشبه السرير . والسمر :الرماح . والقواضب : جمع قاضب وهو السيف . والبيت كله كناية عن الشجاعة .

من معشرٍ خبروا الزمانَ رياسةً
وسياسة حلُّوا الذُّرى حُمْرَ الذُّرا

سُمّ العداةِ على حياءٍ فيهم
لاتعجبنَّ ! كذاك آسادُ الشَّرى(١)

كادوا يُقيلون العَداة من الردى
لو لم يَمدوا كالحجاب العِثيرا(٢)

حتى ظُباهم فى الحياء مثالُهم
أبدت — وقد أردت — محيا أحمرا(٣)

جعلوا خواتِم سُمْرهم من قلب كل مُعاند حسبَ المثقّف خِنْصرا

وببيضهم قد توَّجوا أعداءهم
حتى العدا حلوا لكيما تشكرا

لو لم يخافوا تيه سارٍ نحوهم
وَهبوا الكواكبَ والصباحَ المسفرا(٤)

---

(١) الآساد : جمع أسد . والشرى : المأسدة أو مكان الأسد

(٢) العثير : الغبار الذى تثيره سنابك الخيل. والمعنى أن فى قوم الممدوح حياء إلى حد أنهم يكادون يقيلون أعداءهم من الهلاك لولا التراب الذى تثيره المعارك كالحجاب

(٣) الظبا : السيوف أو جمع ظبة وهى حد السيف . ومعنى البيت أن فى سيوفهم حياء مثلهم فهى تحمر حين تردى الأعداء ؛ كأنها تحمر خجلا من دماء القتلى التى صبغت بها

(٤) معنى البيت أن قوم الممدوح كرام. فلو لم يخافوا أن يضل قاصدوهم الطريق إليهم لما بخلوا بالكواكب وبالصبح فوهبوها للسائلين ! !

واهب الدنيا بأجمعها

وقال من قصيدة يمدح :

هذا الذى يَهبُ الدنيا بأجمعها وبعدذلك يُلْفَى وَهو يَعتذِر

إن هزّه المدح فالأموال فى بِدَرٍ
والغصنُ ما هُزّ إلا بُدِّدَ الثمر

فقلت لما بدا لى حسنُ منظرِه
لكنه زاد إشراقاً هو القمرُ

متِّع لحاظك فى وجهٍ بلا ضررٍ
إن كان شمسا تراها تحتها مطر . .

مقارع الأبطال

وقال يمدح ابن عمه الرئيس المجاهد أبا عبد الله محمد بن الحسين ويهنئه بقدومه من حركة « هوارة » : —

إذا رقَّمَ القرطاسَ قلتَ « ابن مُقلة »
وإن نَظم الأشعارَ قلت « حبيب »[1]

(١) ابن مقلة هو الوزير الخطاط المشهور فى القرن الرابع . وحبيب هو الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائى

وإن نَثَر الأسجاع قلت «سَمِيُّهُ»

وإن سَردَ التاريخ قلت «عريب»(١)

وما أحرز «الصولى» آدابه التى

إذا ما تلاها لم يَجبه أديب(٢)

وأما إذا الحرب أخمد نارُها ففيه تلظى مارجٌ ولهيب(٣)

فكم قارعَ الأبطالَ فى كل وجهة

نحاها، وكم لُفَّت عليه حروب

وكائنْ له بالغَرْب من موقف، له

حديث إذا يتلى تطيرُ قلوب

بمراكشٍ سَلْ عنه تعلم غناءه

وقد سَاءَهم يومٌ هناك عصيب

(١) سميه: شبيهه فى الاسم والمقصود به محمد بن الحسين المشهور بابن العميد المنشىء المشهور فهو سمى للمدوح، وكل منهما اسمه. محمد بن الحسين، وعريب هو المؤرخ عريب بن سعد القرطبى الذى اختصر تاريخ الطبرى وذيل عليه فى تاريخ الأندلس وأفريقية.

(٢) الصولى هو المؤرخ الأديب جمع دواوين كثير من الشعراء واسمه محمد بن يحيى. وهو غير إبراهيم بن العباس الصولى الشاعر الذى تقدم

(٣) المارج الشعلة من النار الشديدة اللهب

إذا ما ثنى الرمح الطويل كأنه
مدير لغصنٍ الخيزران لعوب
وإن جرّه أبصرت نجما مجرِّرا ذؤابته، منه الكماة تذوب
كفانى أنى أستظلُّ بظلكم
و من هاب ذاك المجد فهو مهيب
فأصلك أصلى؛ والفروع تباينت بعيدٌ على من رامه وقريب
وحسبي فخرا أن أقول «محمد» نسيب علىٌّ جلَّ عنه نصيب
تركت جميع الأقربين لقصده
على حين حانت فتنة وخطوب

لولا ندى يحي

وقال يمدح أبا زكريا يحي الحفصى ملك تونس:

من ذا الذى يبخل فى تونسٍ
والملحُ فيها صار عذبا(١) قراحْ؟
وأصبحت أرجاؤها جنةً
مبيضة الأرجاء خضرا البطاح(٢)

---

(١) القراح: هو الماء الخالص
(٢) خضرا أصلها خضراء حذفت الهمزة للشعر

لولا ندى يحي وتدبيرُهُ ما برحتْ تغيرُ منها النواح(١)
لكن يداه سُحبٌ كلما حلت بأرض حَلَّ فيها النجاح
هذا وقد آمن مَنْ حلَّها وحفَّها من غربة وانتزاح
ياسائرا يرجو بلوغ المنى باكر ذرا «يحي» وقل: لا رواح(٢)
وحيِّه بالمدح فهو الذى يهتز كالهنديِّ حين امتداح
بالشرق والغربِ غدا ذكرُهُ يحثُّ من حَمْدٍ وشكرٍ جَناح
ساعَدَه السَّعدَ وأضحت له آمالنا تجرِي بغير اقتراح ...

د ـ الرثاء

لمن أشتكى ؟

وقال يرثى الوزير ابن جامع وكان يحميه من معاكسات ابن عمه الرئيس أبى عبد الله بن الحسين له :

بكت لك حتى الهاطلاتُ السواكبُ
وشقتْ جيوباً فيك حتى السحائبُ

---

(١) تغير أى تغار من الغيرة ، والنواح النواحى جمع ناحية
(٢) ذَرا الشيء: كنفه وجانبه. وباكر ذراه أى انهض مبكرا الى كنف الممدوح يحى

فكيف بمن دافعت عنه ومن به
أحاطت ـ وقد بوعدت عنه ـ المصائب

ألا فانظروا دمعى ، فأكثره دمٌ
ولا تذهبوا عنِّى فأنىِّ ذاهب!

وقولوا لمن قد ظلَّ يندب بُعده وفاؤك لو قامت عليك النوائب

لعمرك مافى الأرض وافٍ بذمةٍ
أيصمت « إدريس » ومثلى يخاطب ؟

دعوتُكَ يامن لا أقومُ بشكره
فهل أنت لى بعد الدعاء مُجاوب ؟

أيا سيدا قد حال بينى وبينه
ترابٌ حوت ذكراكَ منه الترائب[1]

لمن أشتكى إن جارَ بَعْدَكَ ظالمٌ
علىَّ ، وإن نابت جنابى النوائب ؟

(١) الترائب جمع تريبة وهى واحدة عظام الصدر . والمعنى أن ذكراك قد احتوتها الصدور وإن كنت مودعاً فى التراب

حسد العناصر

ولما قتل الملك الأيوبي المعظم توران شاه بعد هزيمة الصليبيين في المنصورة عائداً من حصن كيفا ليتسنم عرش مصر، حزن عليه ابن سعيد وكان قد استقبله في دمشق وهو عائد من الحصن ، فقال من قصيدة يرثيه :

ليت «المعظم» لم يَسِرْ من حِصْنه
يوماً ، ولا وافى إلى أملاكه
إن العناصر إذ رأته مكملا حسدته، فاجتمعت على إهلاكه

د ـ الخمريات

بادروا للصبوح

وقال وهو بالجزيرة الخضراء قبل رحيله إلى المشرق :

قد رُفعت رايةُ الصباحِ تدعو النّدامى للاصطباح(١)

---

(١) الندامى : المنادمون على الشراب أو رفقاء الشرب . والاصطباح شرب الخمر صباحا

فبادروا للصبّـوح إنى قد بِـعْتُ فى غيه صلاحى!
ولا تميلوا عن رَشْف ثغـرٍ وَسَمع شدوٍ، وشرب راح(١)
وأنت يَامن يَروم نُصحى قد يَئس القومُ من فلاحى!
فلستُ أصغى إلى نصيحٍ ما نَهَضتْ بالكئوس راحى(٢)

السكر عندهم مباح

وقال فى مجلس شراب وهو بمدينة شريش بالأندلس، وقد جاوز الشاعر الحد فى اللهو:

طاب الشراب لمعشرٍ سُلبوا المروءَة فاستراحوا!
لا يعرفون تستُّرا السكرُ عندهُمُ مُباح
متهتكون لدَى المُنى وفسادهم فيها صلاحُ
ساقِيـهُمُ متبـذِّل هل يمنعُ الماءُ القراحُ(٣)

---

(١) الراح: الخمر

(٢) يقول إننى لن أسمع إلى كلام ناصح ينهانى عن الشرب. والراح فى هذا البيت جمع راحة، وهى الكف

(٣) متبذل: متهتك، والماء القراح: العذب الخالص.

غُصْنٌ يَميل به الصَّبا ردَّته طوعَ الراح راح !
طوع الأمانى كلُّ ما يأتى به فهو اقتراح
ما إنْ يُبالى إن بَدَا أن لا يلوحَ لنا الصباح !
مازلتُ أرشف ثغرهُ وعليه من عَضُدى وِشاح!
والقلبُ يهفو طائراً ولعاً ، ولا يُخشى افتضاح
وَلوَ انَّنا نخشاه كا ن لنا من الظلما جَناح[١]
لكننا فى معشرٍ مافى تهتكهم جُناح[٢]

أين القدح ؟

وقال فى مجلس شراب وهو بأشبيلية ، وهو دليل آخر على إمعانه فى اللهو والتهتك :

وضح الصبح فأين القدح يعرف اللذات من يصطبح
ماترى الليلَ كطرفٍ أدهم وضياءُ الفجر فيه وَضَح[٣]

---

(١) الظلما بفتح الظاء: أصلها الظلماء ، وقد حذف الهمزة لضرورة الشعر. ومعنى البيت أنه لا يخاف افتضاح أمره ، لأنه يتخذ من ظلام الليل جناحا

(٢) الجناح بضم الجيم: الإثم أو اللوم

(٣) الطرف بكسر الطاء : الكريم من الخيل ، والأدهم: الأسود. شبه الليل بحصان أسود ، وبياض الفجر يلوح فيه كأنه وضح

والثرى دَبَّجه دُرُّ النَّدى وعلى الأغصانِ منه وشح
ومُديرُ الراح لم يَعْدُ المنى كلُّ ما يأتى به مقترَحُ
فى بطاح «المرج» قد نادمني رشأٌ من سكره ينبطح[1]..!
هكذا العيشُ ودَعْ عيشَ الذى خاف من نقدٍ إذا يفتضح..

هـ ـ الغــزل والنسيب

عاشق الرياح

وقال وهو بمدينة مرسية يتغزل ويتشوق إلى أحبابه فى فى مدينة حمص الأندلسية :

أقلقه وَجْدُهُ فباحا وزادَ تبريحه فناحا[2]
وَرَام يَثْنى الدموعَ لما جَرَت فزادت له جماحا
يامن جفا فارفـقن عليه مستعبَداً لايرى السراحا
يكابدُ الموتَ كلَّ حين لو أنه مات لاستراحا

(١) المرج اسم مكان بأشبيلية . والرشا : الظبي
(٢) التبريح شدة الوجد والألم

ينزو إذا ما الرياحُ هبَّت كأنه يَعْشَق الرياحا[١]
يسألها عن رُبوع «حمصٍ» لما نَما عَرْفُها وفاحا
كم قد بكى للحَمام كيما يعيرُهُ نحوَها جَناحا

زورة على غفلة

وله من قصيدة قالها يتغزل وهو بأشبيلية :

أوَجْه صُبح أم الصباحْ ولحظُها أم ظُبا الصفاحْ[٢]؟
وثغرُها أم نظيمُ درٍّ وريقُها أمْ سُلافُ[٣] راح؟
وَقدها أم قوامُ غصنٍ وَعرفها أم شَذى البطاح ؟
يا حبذا زورةٌ تأتَّت منها على غفلة اللواح
فلم أصدِّق بها سُرورا وظلت نَشْوان دون راح[٤]
أما مَتَّعت السَّلام دهرا ولا رسولٌ سوى الرياح

(١) ينزو : يثور . والمعنى أن الشاعر يثور كلما هبت الريح ، كأنه عاشق لها، فهو يسألها عن وطن المحبوب

(٢) الظبا : حد السيوف. والصفاح جمع صفح وهو عرض السيف

(٣) السلاف : ماسال وتحلب من الخمر قبل عصرها . والراح : الخمر

(٤) ظلت : أصلها . ظللت ، حذفت إحدى اللامين للتخفيف . والنشوان من به أثر من الخمر والسكر

قالت : ألا فانْس ماتقضىّ فمَنْ يَدَعْ مامضى استراح
يا حَبَّذاها وقد تأتتْ من دون وَعْد ولا اقتراح
زارت وَمِن نورها دليلٌ والليلُ قد أسبل الجناح
أخفت سراها فباحَ نشر لها بعَرفٍ فشا وفاح(١)
وافت فأمسى فمى مُداما وساعداى لها وشاح
كأنما بتُّ بَين روضٍ والغُصنِ والوردِ(٢) والأقاح.!

ياليته ترفق . . !

وقال من قصيدة فى الغزل :

وهبتُ فؤادى للمباسم والحَدَقْ
وحكمتُ فى جفنى المدامعَ والأرقْ(٣)
ولم أستطع إلا الوفاء لغادرٍ وياليتنى لما وَفيت له رَفق !

(١) السرى بضم السين : المشى ليلا . والمعنى أن محبوبته أخفت مشيها ليلا فدل عليها طيب عرفها ، وفائح عطرها الذى فشا وانتشر
(٢) الأقاح جمع أقحوانة وهو نوع من الزهر أوراقه صغيرة مفلجة تشبه بها الأسنان ، كما قال الشاعر :
كأنما تبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح
(٣) المباسم: جمع مبسم وهو مكان الابتسام من الثغر ، والمراد فم المحبوب. والحدق جمع حدقة

ومن أجله قد رقّ جسمى صبابةً
ويا ليته لما رآه عليه رَقّ

متى أشتكى فيض المدامع قال لى
خلافك قد قاسى المدامعَ والحرْق !

إذا لاح فى المحمرّ فالبدرُ فى الشفقْ
وإن لاح فى المخضرّ فالغصنُ فى الورق[1]

تحمّله أردافُه فوق طاقه
ومن هيَف لوشاءَ بالخاتم انتطق[2]

فيا عاذلى فيما جنتهُ لحاظهُ
أتعذلنى والسيفُ للعذلِ قد سبَقْ ؟!

---

(١) إذا ظهر المحبوب فى ثوب أحمر فكأنه البدر يبدو فى الشفق ، وإذا ظهر فى ثوب أخضر فكأنه غصن محاط بأوراق خضر

(٢) الشطر الأول كناية عن ثقل الأرداف ، والثانى كناية عن رقة الخصر ، فكأنه انحوله وهيفه لو شاء أن يجعل الخاتم نطاقا له لفعل ...

و ـ الحنين والتشوق

هذه مصر فأين المغرب ؟

أدركت ابن سعيد وحشة أول نزوله بالقاهرة ، فنظم قصيدة فى الحنين إلى الوطن يقول فيها :

هذه مصرُ فأينَ المغربُ ؟ مُذ نأى عنى فعينى تسكبُ
فارَقتْهُ النفسُ جهلا ، إنما يُعرَفُ الشىءُ إذا ما يذهب(١)
أين « حمص » أين أيامى بها بَعْدها لم ألْقَ شيئاً يُعجب؟
كم بِعَيش لى بها من لذة حيث للنهر خرير مُطرب
وحَمامُ الأيك تشدو حولنا والمثانى فى ذُرَاها تصخبُ
أىُّ عيش قد قطعناه بها ذكرُهُ من كلِّ نُعمى أطيبُ
وَلَكمْ « بالمرج » لى من لذةٍ بعدها ما العيشُ عندى يعذُبُ
والنواعيرُ التى تذكارها بالنوى عن مهجتى لا يُسْلَبُ(٢)
ولكم فى « شنتبوس » من منىً قد قضيناها ولا من يَعتب
بلدةٌ طابت وَرَبٌّ غافرٌ ليتنى مازلتُ فيها أذنب !

(١) أى لا يعرف قدر الشىء إلا بعد ذهابه

(٢) النواعير : جمع ناعورة وهى دولاب للماء كالساقية فى مصر ينصب على مجارى الأنهار والعيون

أين حُسنُ النيل من نهر بها كل نغمات لديه تُطرب ؟
كم به من زورقٍ قد حلّه قمرٌ ساق ، وعودٌ يُضرب !
هذه حالى ! وأما حالتى فى ذَرَا مصرٍ ففكرٌ متعبُ(١)
هأنا فيها فريدٌ مهملٌ وكلامى ولسانى مُعرب !
وأنادَى مغربياً . . . ليتنى لم أكن للغرب يوما أنسب !!

أين قوم ألفتهم ؟

وقال وهو بمدينة مالقة الأندلسية متشوقا إلى الجزيرة الخضراء :

يانسيماً من نحو تلك النواحى
كيف بالله نورُ تلك البطاح ؟
أسقتها الغمام رِيًّا فلاحت فى رداء ، ومئزر ، ووشاح ؟
أم جَفَتْه فصيّرته هشيما تركته تذروه هوج الرياح(٢)
يازمانى « بالحاجبية » إنى
لستُ من سُكْر ما سُقيتُ بصاحى !

(١) فى ذرا مصر ، بفتح الذال أى فى كنفها وظلها

(٢) الهشيم : الجاف من النبات ، وتذروه أى تبعثره فى الهواء ، والرياح الهوج : الهوجاء العاصفة الشديدة

آهِ مما لقيتُ بَعْدكَ مِن همٍّ ، وشوقٍ ، وغُربة وانتزاح[1] !
أين قومٌ ألفتهُمْ فيك لما قرُبَ الدهرُ آذنوا بالرواح
تركونى أسير وجدٍ وشوقٍ مالقلبى من الجوى مِنْ سراحِ

إن عاد لى وطنى !

وقال وهو مغترب بمصر يحنُّ إلى الأندلس ويصف أشواق الغريب : ـ

أصبحت أعترض الوجوهَ ولا أرى
ما بينها وَجْهاً لمن أدريه !
عَوْدى عَلى بَدْئى ضلالا بينهم
حتى كأنى من بقايا[2] التيه !
ويح الغريب توحشت ألحاظهُ فى عالم ليسوا له بشبيه !
إنْ عادَ لى وطنى اعترفتُ بحقه
إن التغرُّبَ ضاع عمرى فيه !

---

(١) الانتزاح : النزوح والبعد عن الوطن أو عن أرض الحبيب
(٢) عودى على بدئى : أى أننى غريب حائر أدور فى مدار لانهاية له وأعود على بدء

ز ـ المدائح النبوية

لولا رسول الله

وقال من قصيدة نبوية نظمها بالإسكندرية سنة ٦٣٩ هـ حينما وصل إليها وتعذر عليه الحج فى ذلك العام :

قرُبَ المزارُ ولازمانٌ يُسْعِدُ
كم ذا أقرِّبُ ما أراه يَبْعدُ ؟ !
وا رحمة لمتيم ذى غربة ومع التغرُّب فته مايقصدُ
قد سارَ مِن أقصى المغارب قاصداً
مَنْ لذَّ فيه مسيرُه إذ يجهد
ياسائرِينَ ليثربٍ بُلغْتمُ قد عاقنى عنها الزمانُ الأنكد(١)
أعلمتمو أن طِرْتُ دون محلها سبقا ، وهأنا إذ تدانى مقعد
لاطاب عيشى أو أحلَّ بطيبةٍ
أفُقٌ به خيرُ الأنام « محمد »(٢)

---

(١) يثرب هى اسم من أسماء مدينة الرسول عليه السلام . وعاقنى عنها أخرنى عن بلوغها
(٢) طيبة : بفتح الطاء وسكون الياء اسم لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .
وتسمى أيضا طابة

ياخير خلق الله مهما غِبتُ عن عُلْيا مشاهدها فقلبي يَشْهَد

لولا رسولُ اللهَ لم ندْر الهدى
وبه غداً نرجو النجاةَ ونَسْعدُ

يارحمةً للعالمين بُعثتَ والدُّ نيا بجِنْحِ الكفرِ ليلٌ أرْبد(١)

ماذا أقول إذا وصفتُ محمداً؟ نَفدَ الكلامَ ووصْفُه لا يَنْفَدُ

فعليك ياخير الخلائق كلها منى التحيةُ والسلام السَّرمد(٢)

(١) جنح الليل: بكسر الجيم. طائفة أو قسم من الليل. والأربد. الأغبر

(٢) السرمد : الدائم الذى لا نهاية له

٢ـــ ابن سعيد الناثر

مؤرخ ومنهجه

مشاهد من الفسطاط

قال ابن سعيد فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » يصف الفسطاط وأهلها :

... ولم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط ، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين . وقد تقدم أنها فى الإقليم الثالث وذكر مايدبرها من النيرات وغير ذلك . وجملة الحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة وكثرة الممازجة والألفة مايطول ذكره . وقد تقدم منه ماتقدم. ولقد تكررت إليها مرات ، وصحبت فيها بتوالى السنين جملة ناس فما فارقتها ؛ وأنا راض من أهلها بغير مكارم بنى القسطلانى الفقهاء المالكية ، فأنهم يصدقون ويرعون الصحبة ، ويوفون بالعهد ، ويؤدون الأمانة ، لاتبرح الأضياف تغشى منازلهم على

ما تيسر من مكارمهم فى حالى اليسر والعسر . وهم فى ذلك على طول الأيام ، لازمين طريقة واحـــدة فى الكرم والصبر ، ورأيت من شاعرها جمال الدين أبى الحسين الجزار مالم أره فى كثير من شعراء البلاد وأدبائها . فأنه فارقنى بعد صحبة سنين ، وأنا أشكره وأوده أكثر من شكرى وودى له فى أول سنة صحبته فيها. وطالما قصد القاهرة لاستدعائى إلى كرامته بالفسطاط، وبت عنده فى نهاية من السرور والانبساط[1] ، وكم سعى فى حق وشهرة ذكرى، جزه الله خيراً على بعد داره ، ولا أسمع إلا ما يسر من أخباره

يجزيك أو يثنى عليك وإن من   أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

وخرجت معه مرة إلى ظاهر الفسطاط حيث بركة الحبش التى يقول فيها أبو الصلت :

لله يومى ببركة الحبش   ونحن بين الضياء والغَبَش

والنيل تحت الرياح مضطرب   كصارم فى يمين مرتعش

وعاينت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظر ، ثم زرتها أيام غاض معظم الماء وبقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط[2] والكتان تفتن الناظر وفيها أقول:

---

(١) الانبساط: التوسع والتنزه فى الأرض، وتستعمل عرفا الآن بمعنى السرور

(٢) القرط: هو نبات البرسيم

يابركة الحبش التى يرمى بها طول الزمان مبارك وسعيد
حتى كأنك فى البسيطة جنة وكأن دهرى كله بك عيد
ياحسن مايبدو بك الكتان فى نواره أو زره معقـــود
والماء منك سيوفه مسلولة والقرط فيك رواقه ممدود
وكأن أبراجا عليك عرائس جليت وطيرك حولها غريد
ياليت شعرى هل زمانك عائد فالشوق فيه مبدىء ومعيد !

وبت ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط، وهى فى شرقيها، بها منازل لأعيان الفسطاط والقاهرة وقبور عليها مبان معتنى بها . وفيها القبة العظيمة العالية المزخرفة التى فيها قبر الإمام الشافعى رحمة الله عليه ، وبها مسجد جامع ، وترب كثيرة[1] عليها أوقاف للقراء ومدرسة كبيرة للشافعية ، ولا تكاد تخلو من طرب ولاسيما فى الليالى القمرية ، وهى معظم مجتمعات أهل مصر ، وأشهر متنزهاتهم ، وفيها أقول :

إن القرافة قد حوت ضدين من دنيا وأخرى فهى نعم المنزل
يغشى الخليع بها السماع مواصلا ويطوف حول قبورها المتبتل
كم ليلة بتنابهـــا ومدامنا لحن يكاد يذوب منه الجندل

(١) الترب: جمع تربة وهى مكان الدفن

والبدر قد ملأ البسيطة نوره فكأنما قد فاض فيها جدول
وبدا يضاحك أوجها حاكينه لما تكامل وجهه المتهلل

وأما مايرد على الفسطاط من متاجر البحر الأسكندرانى والبحر الحجازى فأنه فوق مايوصف، وبها يجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد. وبالفسطاط مطابخ (١) السكر والصابون ومعظم مايجرى هذا المجرى، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند، كما أن جميع زى الجند هو بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر مايعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية. والخراب فى الفسطاط كثير. والقاهرة أجد وأعمر، وأكثر زحمة، بسبب انتقال السلطان لها، وسكنى الأجناد فيها، وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية. وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر. وفوق القرافة فى شرقيها جبل المقطم، وليس له علو ولا فيه اخضرار، وإنما يقصد للبركة، وهو نبيه الذكر فى الكتب، وفى سفحه مقابر أهل الفسطاط والقاهرة.

---

(١) مطابخ السكر: أى معامل السكر التى يطبخ فيها تهيئة لعرضه للبيع فى الأسواق

ب - أدب التراجم

العقيلى الشاعر

ترجم ابن سعيد المغربى للشريف أبى الحسن على بن الحسين ابن حيدرة العقيلى[1] الشاعر المصرى فى كتابه « المغرب » : قسم مصر ، فقال عنه :

سألت عنه جماعة من أهل مصر ، فلم أر فيهم من يتحقق أمره ، وقال لى أحد الشرفاء المعتنين بأنساب الشرف : هو من ولد عقيل بن أبى طالب ، كان فى المائة الرابعة ، وكان له متنزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد ، ثم وقفت فى (الجزيرة) على ترجمته ، فدل على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة ، وذكر أنه من ولد عقيل بن أبى طالب ، من أهل مصر . وأنشد له :

---

(١) العقيلى شاعر مصرى من الأشراف ، وقد نشر ديوانه محققا الدكتور زكى المحاسنى. والعقيلى من شعراء القرن الرابع فى العصر الفاطمى . وقد أصدرت ديوانه دار إحياء الكتب العربية بمصر (عيسى الحلبى وشركاه)

كأن الثريا والهلال أمامها يد مدها رام إلى قوس عسجد

ثم وقع لى ديوان شعره ، فنقلت منه ما يشهد بعلو قدره ؛ وهو من أئمة المشبهين ..

أبو عبد الله بن المناصف القرطبي

وترجم ابن سعيد لابن المناصف القرطبي فى الجزء الأول من « المغرب » قسم الأندلس ، فقال :

قال والدى: بنو المناصف ثلاثة ، اجتمعت بهم وذاكرتهم، فما رأيت منهم إلا نجيبا مبرزا ، والفضل لأبى عبد الله ، لأنه تفنن فى العلوم ، وولى أكبر خطط القضاء : مثل مرسية ، وبلنسية . وإن كان موسى أرق شعرا ، فإنه أمتن علما فيما يتعلق بالأصول والفروع . وكان أبو إسحاق مشاركا مديد الباع فى الأصول والفروع ، وولى قضاء سجلماسة . ولأبى عبد الله الرجز المشهور بالمغرب فى الشيات

قال : ومما أنشدنيه لنفسه قوله من قصيدة للناصر :

دانت لك العرب طوع الحق والعجم
وأصبح الدهر عن علياك يبتسم

وقوله :

تغيب عنى وقلبى لديك رهن معذب
فردَّه لى وبن حيثما تشا وتَغَيَّبْ
الله يعلم أنى طول الدجى أتقلب
فجد علىَّ بوصل إن كنت فى الوصل ترغب
إن لم تلح لى بدرا فلح فديتك كوكب

وقوله :

ألزمت نفسى خمولا عن رتبة الأعلام
لا يخسف البدر إلا ظهوره فى التمام

وحج ، وأقام بمصر قليلا ، وكر راجعا فمات . وذكر المحدث أبو العباس بن عمر القرطبى أنه جمع كتابا فيه أربعة علوم: أصول الدين ، وأصول الفقه ، وفروعه ، وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم .

أبو بكر محمد بن عبد الله الدانى

وفى كتاب « القدح المعلى » ترجم ابن سعيد المغربى لأبى بكر الدانى ، فقال فيه : —

كان أبوه من دانية ، وأما ابنه المذكور فأشبيلى الدار ، بينى وبينه المجالسة والمذاكرة والجوار. وهو شاب مشتغل بالأدب ، يدخل نفسه فى أهل التعبير والحسب، كثير الوقوع[1] فى الناس ، مؤذ بمحاضرته جميع الجلاس . جالسته ببلده غير مرة ، ثم تجنبته لأنى لم أنفصل قط عنه إلا بمضرة . وكان يدل بالخال والمال إذ كان ابن أخت أبى العباس بن بنى ، مشرف أشبيلية ، وإذا أنشد طلب من كل سامع إظهار الاستحسان ، وتحريك اليد والرأس واللسان . وبالجملة فكان رضاه غاية لايدركها أحد ، ومودته لا تستطاع إذ طبعه الله على الغل و لحسد . وحملته نزوات جنونه[2] ومختلجات ظنونه ، على أن نزع من بلده إلى ابن « الأحمر »[3] حين غلب على قرطبة ، والفتنة قد أشعلت نارها،

---

(١) فلان كثير الوقوع فى الناس : أى أنه يلوى لسانه بذمهم وذكر مثالبهم

(٢) النزوات : جمع نزوة وهى السورة والحدة بلا ضابط للنفس

(٣) ابن الأحمر هو محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس الدولة النصرية التى حكمت بغرناطة ، ثم سقطت على يد فردناند وإيزابلا ، وبسقوطها انتهى ملك العرب والإسلام بالأندلس

ورفعت منارها ، وخاطب جماعة من أخوانه بأشبيلية ، يرفع فيها من مخدومه الجديد ، ويذم أهل بلده مابين القريب والبعيد. ثم جرى على تلونه ، وترك تنسكه وتصونه . فنمى إلى ابن الأحمر أنه عامله بتلك المعاملة ، وخرق فى خدمته ستر المجاملة ، فصلبه على نهر قرطبة والقلم مربوط ببنانه ، لكى يعلم الناس أن ضارب عنقه سيف لسانه ، وذلك فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

وعهدى بالكاتب أبى بكر بن البناء لما بلغه خبره تمثل بقول أبى الطيب :

قالوا لنا مات إسحاق فقلت لهم
هذا الدواء الذى يشفى من الحمق

وكان مشهور الشعر ، ولم يثبت بخاطرى منه إلا قوله لخاله ، فى عتاب خصه به لتقصيره فى تبديل حاله : —

قد كنت فى قربك ذا غلظة　　وسقطة فى الدهر لا تستقال
أدعوك بالخال ولكنها　　مردفة بالداء عند المقال
يشح فى كل الذى رمته　　من مطلب بخلا ، وكم شحَّ خال
أنسيت ما تذكره دائما　　ياتاركى عند اختيار الرجال
لكل شخص فى الورى لقية　　تخرج والأيام مثل الخيال

قال والدى : كلمت فيه خاله المذكور ، وكان من أهل المروءات مع البعيد فكيف مع القريب . فقال : إنه أكثر من عتابى حتى خرج إلى الهجاء ، وأنشدنى هذه الأبيات . فقلت : والله إن هذه حكمة وتذكرة ، فقال : يافلان ! أنا أعرف به منك . والله ما يطلب إلا من يضرب عنقه ، ولا يصلح لى ولا لغيرى أبدا . فلم تمض إلا شهور ، حتى كان له الخبر المشهور .

جـ - أدب البلاغة والبيان

مقدمة عنوان المرقصات والمطربات

لابن سعيد المغربى كتاب اسمه «عنوان المرقصات والمطربات» جمع فيه المرقص والمطرب من الأبيات التى جاءت فى الشعر العربى كله من الجاهلية حتى شعراء القرن السابع الهجرى . وقد قدم للكتاب بمقدمة تدل على اتجاهه فى اختيار الأبيات الروائع ، جاء فيها : —

إن الله جل وعلا جعل قيمة كل امرىء ما يحسن ويقول ، وشرف البلاغة بأن تأخذ الأفهام منها على قدر القرائح والعقول .

ولم يمكن من أعنتها[1] من هو عن مجال رجالها قاصر ، وحباها فى كل عصر بأكرم ولى وأعز ناصر ، ولم يقصر الفضل على من تقدم ، وأبان لنا مطارح القصور بمن جعل جنته « هل غادر الشعراء من متردم » ، وأجرى الحقيقة على لسان القائل :

فلو كان يفنى الشعر أفنته ماقرت[2]
حياضك منه فى العصور الذواهب
ولـكنه صوب العقول إذا انجلت
سحائب منه أعقبت بسحائب

وهدى إلى تبيين العلة ، من قال فى ذلك فشفى الغلة :

عنى الناس بامتداح القديم وبذم الحديث غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحى فرقّوا على العظام الرميم

ولله در القائل إن المتقدمين بنوا فأوثقوا ، وإن المتأخرين زينوا ونمقوا . ورأيت فى رسالة : إن لـكل زمان ، ما يليق به من البيان . وفى أخرى : الناس بأزمانهم ، أشبه منه بآبائهم .

---

(١) الأعنة : جمع عنان وهو زمام الفرس ولجامه . وتمكن فلان من عنان الأمر إذا كان مستوليا عليه متمكنا منه

(٢) قرى الرجل الماء فى الحوض : جمعه . والعصور الذواهب جمع ذاهب ، وهى العصور الماضية .

ولم تزل البلاغة فى كل عصر بالمشارق والمغارب ، تطلع ما يزين سماءها من شمس وبدر وكواكب . والمنصف من أطال عنان الاختبار ، دون اقتصار ، ولم يخص بالفضيلة عصرا من الأعصار ، ولا مصرا من الأمصار ، وإنى لما تغلغلت فى الرحلة ما بين مشرق ومغرب ، وملأت سمعى من كل معجب بنفسه ومعجب ، ولقيت من الخائضين فى النظم والنثر ، ما أشار إليه القائل بقوله الذى هو على الغرض أدل من النسيم على الزهر :

الناس كالأرض[1] ومنها هُمُ من خشن فيها ومن لين
مرو[2] تشكّى الرِّجل منه الأذى وإثمد يجعل فى الأعين

قمت محتسبا للبلاغتين ، وتبين طبق الصناعتين ، فاشتغلت بالكتاب الموسوم بجامع المرقصات والمطربات ، وما يعنون به عن سائر الطبقات ، وهو محتو على ما يتضمنه من الغرض المذكور كتاب « المشرق ، فى حلى أهل المشرق » وكتاب « المغرب ، فى حلى أهل المغرب » . ولما شاع ذكر اشتغالى بالجامع المذكور تطلعت

---

(٢) منها هم أى هم منها ، فقدم الخبر على المبتدأ .

(٣) المرو : نوع من الحصا يوجع الرجل إذا مشت عليه ، والأثمد : الحجر الذى يتخذ منه كحل العين ، ومعنى البيتين أن الناس كالأرض ، منهم النافع والضار ، كالأرض منها الحجر المؤذى ، والحجر الذى يسحق ويوضع فى العين

إليه . همم أحالت أمانيها فى الغرض من هذا الشأن عليه، وتكرر الطلب والسؤال ، قبل أن ينتهى إلى غاية الكمال ، فجعلت هذا الكتاب كالمقدمة بين يديه ، وصنفته ليكون كالمدخل إليه ، وسميته «عنوان المرقصات والمطربات » ، وضمنته من النثر زهرات، مقتطفة يسهل حفظها ، ومن النظم بدائع أبيات ، لا يشق على القلب والطرف ذكرها ولحظها . مما يحاكى شعشعة الشمس على صفحات الأنهار ، ورقرقة الطل فى لحظات الأزهار ، ليرف على ما ئيته ريحان القلوب، ويعطيه السمع لحظ المحب إلى المحبوب :

من كل معنى ولفظ كخمرة فى زجاجهْ

يسرى النسيم إليه يبغى لديه علاجه

ولم أتجاوز فى النظم ألف بيت ، مما لا تحدى عليه بلو وليت ، ورتبته على الأعصار ترتيب الفرائد فى العقود ، ومزجت المرقصات والمطربات فيه مزج الحمرة بالبياض فى الخدود ، وفصلت ما بين فضلاء الشرق وفضلاء الغرب ، كما فصل بين الجمعين حكم الطعن والضرب ، ولم أتعرض للكلام على التنقيص والترجيح ، ولا تصرفت فى طريقى التقبيح والتمليح ، بل أتيت بقليل النثر فصلا بعد فصل ، وبالألف من النظم بيتا إثر بيت ، مجردا جميع ذلك لتسهيل الحفظ ، وبالله الاستعانة ، ومن فضله نسأله الإبانة .

المصادر والمراجع

مرتبة ترتيبا هجائياً

اختصار القدح المعلى : ابن سعيد المغربى ، تحقيق إبراهيم الأبيارى — القاهرة سنة ١٩٥٩ .

أمراء دمشق فى الإسلام : صلاح الدين الصفدى ، المجمع العلمى العربى — دمشق سنة ١٩٥٥

البداية والنهاية : ابن كثير الدمشقى ، مطبعة السعادة — القاهرة سنة ١٩٣٢

بغية الوعاة ، فى طبقات اللغويين والنحاة : السيوطى ، طبعة عيسى الحلبى — القاهرة سنة ١٩٦٥

تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان، مطبعة الهلال — القاهرة سنة ١٩٣١ : وطبعة سنة ١٩٥٧ بتحقيق الدكتور شوقى ضيف

تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين : يوسف

آشباخ ، ترجمة محمد عبد الله عنان — القاهرة سنة ١٩٤٠

تاريخ العرب فى الأندلس : حسن مراد — القاهرة سنة ١٩٣٠

تاريخ ابن الفرات : تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ، المطبعة الأميركانية — بيروت سنة ١٩٤٢

تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى : عمر الأسكندرى وزميله سافدج ، دار المعارف — مصر سنة ١٩٢٣

جمهرة أنساب العرب : ابن حزم الأندلسى - دار المعارف مصر سنة ١٩٤٨ .

حسن المحاضرة : السيوطى ، مطبعة الوطن — القاهرة ١٢٩٩ هـ

الحلة السيراء : ابن الأبار القضاعى ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس — القاهرة ١٩٦٣

حملة لويس التاسع على مصر : الدكتور محمد مصطفى زيادة — القاهرة سنة ١٩٦١ ،

خطط المقريزى : أحمد بن على المقريزى ، مطبعة النيل — القاهرة ١٣٢٤ هـ ،

خلاصة تاريخ تونس : حسن حسنى عبدالوهاب — تونس سنة ١٣٧٣ هـ ،

دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية .

الديباج المذهب : ابن فرحون المالكى — القاهرة ١٣٥١ هـ .

الذيل على الروضتين : أبو شامة — القاهرة ١٩٤٧

زبدة الحلب ، من تاريخ حلب : ابن العديم ، المعهد الفرنسى — دمشق ١٩٥١ .

شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلى ، طبعة القدسى — مصر سنة ١٣٥١هـ

الشعر الأندلسى : أميليو غرسيه غومس ، تعريب الدكتور حسين مؤنس — القاهرة سنة ١٩٥٢

عنوان الأريب، عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب : محمد النيفر — تونس سنة ١٣٥١ هـ

عنوان المرقصات والمطربات : ابن سعيد المغربى ، مطبعة جمعية المعارف — القاهرة سنة ١٢٨٦هـ

الغصون اليانعة ، فى شعراء المائة السابعة : ابن سعيد المغربى ، دار المعارف — مصر سنة ١٩٦٧

فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبى- طبع بولاق مصر سنة ١٢٩٩هـ
اللمحة البدرية فى الدولة النصرية : لسان الدين ابن الخطيب — القاهرة سنة ١٣٤٧هـ
محاضرت تاريخ الأمم الإسلامية : الشيخ محمد الخضرى - القاهرة ١٩٢١ .
مرآة الزمان : سبط ابن الجوزى ، مطبعة حيدر آباد الدكن - الهند سنة ١٩٥١
المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب : عبد الواحد المراكشى — القاهرة سنة ١٩٤٩ .
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة : زانبور ، ترجمة الدكتور زكى محمد حسن - القاهرة سنة ١٩٥١
المغرب ، فى حلى المغرب (القسم الخاص بمصر) : ابن سعيد المغربى تحقيق الدكتور زكى محمد حسن وزملائه - القاهرة ١٩٥٣
المغرب ، فى حلى المغرب (القسم الخاص بالأندلس) : ابن سعيد المغربى ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف - دار المعارف ، مصر سنة ١٩٥٣
نفح الطيب : المقرى - المطبعة الأزهرية — القاهرة سنة ١٣٠٢هـ
وفيات الأعيان : ابن خلكان، مطبعة بولاق — القاهرة سنة ١٢٩٩هـ

فهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٧٨٠ لسنة ١٩٦٩

المطبعة الفنية الحديثة

٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٨٨٧١